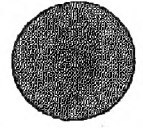


الأعمال
الكاملة



الكتاب

الكتاب

الكتاب

الكتاب

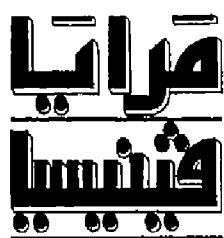
الكتاب

١٢

قرايا

قرايا

دار النشر



الطبعة الأولى

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد المعظم عام ١٩٦٨

القاهرة ٨ شارع سيويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب. ٣٣٠ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

أحمد إبراهيم الفقيه

قَرَاتِيَا

قَتْلِيَا

مجموعة قصص

دار الشروق —

تقنيات القصة القصيرة لدى أحمد إبراهيم الفقيه

سلطة الخيال التعزيمية

دراسة نقدية بقلم الدكتور صبري حافظ

« إنه من أكثر كتاب القصة الليبية تطوراً ، ومن أقدرهم على تجاوز إنجازاته باستمرار ، والإسهام بهذا التجاوز الدائم في إثراء القصة العربية والإضافة إلى مغامراتها الحديثة ، وخاصة في أعماله الأخيرة التي يقتحم فيها أفاقاً فنية ومضمونية جديدة ، ويضرب بها في أرض بكر تقع على تخوم الواقع والحلم ، وتنحت قسماتها من أديم الخيال ، وتؤهلها لأن يكون نسيجاً وحده في عالم القصة العربية » .

يحتل أحمد إبراهيم الفقيه مكانة متميزة في لوحة القصة الليبية الحديثة . ليس فقط لأنه من أبرز كتاب هذا الجنس الأدبي في ليبيا ، وأخصبهم موهبة ، وأغزرهم إنتاجاً وأكثرهم حضوراً في الواقع الأدبي العربي ، وليس أيضاً لأنه من الكتاب الليبيين القلائل الذين درسوا القصة الليبية وحاولوا بلورة رحلتها المتميزة من النضج وتنوع مسارات المؤثرات التي شاركت في صياغة شخصيتها الخاصة . ولكن أيضاً لأنه من أكثر كتاب القصة الليبية تطوراً . ومن أقدريهم على تجاوز إنجازاته باستمرار ، والإسهام بهذا التجاوز الدائم في إثراء القصة العربية والإضافة إلى مغامراتها الحديثة ، وخاصة في أعماله الأخيرة التي يقتحم فيها آفاقاً فنية ومضمونية جديدة ، ويضرب بها في أرض بكر تقع علي تخوم الواقع والحلم ، وتنحت قسماً من أديم الخيال ، وتؤهله لأن يكون نسيجاً وحده في عالم القصة العربية المترامي الأطراف والمحتشد بالأصوات المتداخلة والمتشابهة التي لا يضيف معظمها الكثير إلى وحدان القصة العربية أو حتى إلى رقعة عالمها الفني .

لكن أهم الأسباب التي تطرح أحمد إبراهيم الفقيه بقوة كممثل للقصة الليبية على الساحة العربية هي هذا التناظر الشائق بين رحلة الفقيه الأدبية ومسيرة القصة الليبية مع النضج والتطور . فقد ولد أحمد إبراهيم الفقيه في الثامن والعشرين من ديسمبر عام ١٩٤٢ في مزده ، وسي مركز صحراوي يقع علي مشارف الصحراء الليبية ، أو الصحراء العربية الكبرى ، إلى الجنوب من طرابلس العاصمة . في هذا الواقع الرابص على حدود الصحراء . القريب في الوقت نفسه من أكبر المدن الليبية ، والذي يجمع إلى سمات ليبيا الصحراوية بعض ملامح عاصمتها الحضرية ولد قصاصاً . وكان عام ميلاده هو على

وجه التقريب عام اكتمال مرحلة الميلاد والتبلور بالنسبة للقصة الليبية التي بدأ مخاضها الطويل قبل ميلاده بسبع سنوات في مجلة (ليبييا المصورة) علي أيدي وهبي البوري عام ١٩٣٥ ، واستمر هذا المخاض القصصي عبر أعمال أحمد راسم قدرى والذي كان يوقع كتاباته باسم « قاسم فكري » وهو الاسم الذي زواج فيه بين اسمي قاسم أمين وفكري أباطة ليعلن من خلال المزاوجة بنوته الفكرية لآراء قاسم أمين التحريرية ، ولدعوته الرائدة لتحرير المرأة ، وتأثره بأسلوب فكري أباطة الرشيق ، وروحه المداعبة الساحرة في كتابة الصور القلمية ورؤية العالم .

ولا يقتصر التناظر بين حياة أحمد إبراهيم الفقيه ومسار القصة الليبية على تعاصر مرحلة الميلاد ، ولكنه يتجاوزها إلى طبيعة المكونات ، ورحلة التطور معًا . فقد كان جد أحمد الفقيه الأكبر فقيها للقريبة . وهذا هو مصدر الاسم نفسه « الفقيه » ولذلك كان من الطبيعي أن يتلقي أحمد تعليمه الأول في « الزاوية » وهي المعادل الليبي للكتاب المصري الشهير ، ليس فقط لأن جده كان شيخا للزاوية ، ولكن أيضا نشأة أحمد في تلك البيئة لم تتح له غير ذلك من التعليم التقليدي . وثقافته الأولى كانت هى الثقافة التقليدية التي نهلت من منابعها بدايات القصة الليبية والعربية على السواء من ولع بالمقامات إلى شغف بالمفارقات التي كانت تمثل جل الحس الدرامي أو القصصي في الأدب التقليدي ، الشفهي منه والمكتوب ، إلى اهتمام بجزالة اللغة ولو تحقق ذلك على حساب الإقناع القصصي ، إلى غير ذلك من خصائص البدايات الأولى الواقعة في برائن القص التقليدي . كما أن أحمد قد ولد لا في أسرة بدوية حتى تكون اهتماماته الأسرية بعيدة عن مشاغل المدينة التي ارتوت منها تيارات القص الحديثة ، وإنما في أسرة ذات علاقة وثيقة بالمدينة وأن كانت لاتزال ضاربة جذورها في أرض البلدة الصحراوية . فقد ورث الابن الأكبر « أى عم

أحمد» عن الجد مهنته ، أما الأبْن الذي قدر له أن ينجب كاتباً فقد أصبح صاحب دكان في مزده . وهذا يعني أنه دكان من النوع الشامل الذي يبيع كل ما يحتاج إليه أهل البلدة ، من شاي وسكر ، إلى أقمشة الملابس والأكفان وحاجيات الأصحاء والمرضى علي السواء . . ومن هنا اتصلت أسباب أحمد بالمدينة منذ نعومة أظافره . ان لم يرها في البداية فقد كان يسمع أخبارها منذ تفتح وعيه عبر عيني الأب الذي كان يذهب إليها لتجارته . والمدينة هي العالم الآخر المختلف الغريب الساحر المليء بالحكايات المحفوف بالمخاطر . وهو عالم الاكتشافات والعجائب والإمكانات الهائلة ، وهي جميعاً من الخصائص الضرورية للتربية القصصية أو للإعداد للدخول في عالم الكتابة باهتماماته الحضرية

وما أن أكمل أحمد تعليمه التقليدي ثم انتقل إلى طرابلس عام ١٩٥٧ ليواصل دراسته في تلك المدرسة الجديدة التي أسستها منظمة اليونسكو في طرابلس والتي كانت تسمي - ولمثل هذا الأسم سحر علي الأب الذي مارس التجارة كل حياته - « المركز التجاري الفني » حتى كانت القصة الليبية قد اكملت هي الأخرى مرحلة الدوران في فلك الحكايات التقليدية عند زعيمة الباروني وعلي مصطفى المصراقي في بواكير أعماله القصصية ، وشرعت في التعامل مع شتى أبعاد التجربة الحضرية بما تثيره من ردود فعل مألوفة تتسم عادة بالطبيعة الرومانسية . وإذا كانت دراسة الفقيه قد اتخذت في هذا الوقت طابعاً مدنياً خاصاً . فقد كان هذا هو حال القصة الليبية كذلك . إذ خرجت في تلك الفترة كلية من إهاب السلفية وتخلصت من العناصر التقليدية ، وبدأت مغامرتها مع الاتجاه الرومانسي علي يدي عبد القادر أبو هروس ويوسف الدلنسي ، والرومانسية عادة من عواقب هذا الاصطدام الحاد بين أخلاقيات وقيم تنتمي إلى مرحلتين مختلفتين . ولكنهما لأسباب تاريخية متعاصرتان في واقع اجتماعي ما ، وقد كان هذا هو حال أحمد الفقيه الذي جاء إلى المدينة

ولكنه كان لا يزال يعيش بقيمه ووجدانه في القرية الصحراوية التي خلفها وراءه وحملها في أعماقه في وقت واحد . وكان هذا الاصطدام الملتاع بين العالمين والأخلاقيتين هو التيار التحتي الذي يسري هو الآخر في كتابات الاتجاه الرومانسي المسيطر علي واقع القصة الليبية في هذه المرحلة .

ومع بدايات الستينيات كان أحمد الفقيه قد أكمل تعليمه في طرابلس ، وتوجه إلى مصر للدراسة في معهد سرس الليان لتنمية المجتمع لدراسة السمعيات والبصريات ببعثة من اليونسكو . . وقد رافقت هذه الرحلة بدايات الفقيه الأدبية من ناحية ، ودخول القصة الليبية في مرحلة جديدة من ناحية أخرى . كانت الستينيات أو بالأحرى بدايات الستينيات هي مرحلة الصعود القومي الذي لعبت فيه مصر دوراً رئيسياً . وكانت أيضا مرحلة وضوح الرؤي وتحدد قسما الحلم القومي العريض ، والإيمان الراسخ المتين بالذات الوطنية والعربية ، وكان لابد أن تنفتح القصة الليبية في هذه المرحلة علي القصة المصرية وأن تتأثر بأهم كتابها في هذه الفترة وهو يوسف إدريس الذي وقع أحمد الفقيه ، كغيره من الكتاب العرب في هذا الوقت تحت تأثيره الكاسح لفترة غير قصيرة ، بل وكان من الطبيعي أيضا أن تبدأ القصة الليبية برمتها في استيعات مغامرة القصة بالشرق عامة وفي مصر خاصة ، وأن يقع كثير من كتابها تحت تأثير التيار الواقعي الذي اجتاحت القصة العربية حينئذ فغير لغتها ، وبدل منظورها للعالم وللشخصيات ، وأثر علي طريقة تناولها لمادتها ومعالجتها للأحداث والجزئيات . وطور أدواتها الفنية وأساليبها في صياغة مسادتها ورسم شخصياتها ، وقد بدأ كتاب القصة الليبية في استيعاب هذا الاتجاه الواقعي الجديد الذي تجسد علي الصعيد الليبي في كتابات كامل مقهور وخليفة التكاللي وبشير الهاشمي وبدايات أحمد الفقيه القصصية التي كان يحاكي في الكثير منها أسلوب يوسف إدريس ويطمح إلى بلورة المعادل الليبي لعالمه المغرق في المصرية .

والواقع أن هناك أكثر من وجه شبه بين يوسف إدريس وأحمد الفقيه ، ليس فقط لأن كلا منهما طلع من أعماق شعبه ، واستشعر أدق خصائص هذا الشعب . وحاول أن يخلق لها المعادل القصصي الذي يحولها إلى فن أدبي جميل . . ولكن أيضا لأن كلا منهما عمل بالصحافة في بداية حياته ، فربطته الصحافة بالإيقاع اليومي للحياة ، وباعدته عن تقعر الأدباء المعزولين في أبراجهم العاجية . إذ عمل أحمد الفقيه في الصحافة الليبية عقب عودته من مصر ، وواصل في الوقت نفسه كتابة القصة وسط صعود مد التيار الواقعي في القصة الليبية . فصدرت مجموعته الأولى (البحر لا ماء فيه) عام ١٩٦٥ حاملة الكثير من سمات هذا الاتجاه . . ثم أعقبتها مجموعته الثانية (اربطوا أحزمة المقاعد) عام ١٩٦٨ . لكن المجموعة التي وضعت أحمد الفقيه بقوة واقتدار علي خريطة القصة العربية كانت مجموعة (اختفت النجوم فأين انت) التي صدرت عام ١٩٧٤ . وهي أكثر مجموعات هذه المرحلة الواقعية نضجا . وأحفلها بالبعد النفسي للشخصيات . ولا غرو فقد صدرت هذه المجموعة في الوقت الذي أخذ فيه التيار النفسي في القصة الليبية في التبلور ، وخاصة في كتابات عبد الله القويري وخليفة حسين مصطفى وغيرهما من كتاب هذه الفترة أمثال الصادق النيهوم وإبراهيم الكوني ورضوان أبو شويشة بتلويناتهم المختلفة .

لكن هذه المجموعة أيضا كانت أكثر مجموعات الفقيه نضجا واكتمالا على الصعيد الفني المحض . ليس فقط لأنه استطاع أن يبلور فيها موقفا فكريا واضحا من العالم والشخصيات ، ولكن أيضا لأنه اهتم فيها بالبناء القصصي على صعيد اللغة القصصية وبنية النص القصصي الدرامية . وقد استفاد الفقيه في هذه المجال من دراسته للمسرح ولكل عناصر التجربة الدرامية السمعية والبصرية في مصر ، وفي أول معهد للمسرح في ليبيا بعد ذلك . وكان نضج هذه المجموع القصصية وقدرتها علي تقديم عالم فني متماسك ، وتجربة قصصية

قادرة علي مخاطبة جمهور أوسع من الجمهور المحلي دي الاهتمامات المحدودة ، ورؤية إنسانية حية ومقنعة وراء تسمية كاتبنا بيوسف إدريس القصة الليبية . ويبدو أن أحمد الفقيه هو بحق يوسف إدريس القصة الليبية ليس فقط لأنه جسد عنفوان تجربته الواقعية ، أو لأنه سبر أغوار النفس البشرية والشخصية الليبية باقتدار واقناع وتمكن ، أو لأنه استطاع أن يضع القصة الليبية علي خريطة القصة العربية . ولكن أيضا لأنه كيوسف إدريس يكتب المسرحية والمقالة إلي جوار فنه القصصي الأثير . فقد كتب أحمد الفقيه مسرحيتين هما (هند ومنصور) ١٩٧٢ و (الغزالات) ١٩٨٤ . كما كتب العديد من الكتب النقدية والخواطر أو الصور القلمية مثل : (معارك الغد) ١٩٧٥ ، و (تحيئين كالماء وتذهبين كالريح) ١٩٧٩ . و (كلمات من ليل سليمان) و (الصحراء وأشجار النفط) ١٩٨٠ و (أبناء الماء وأبناء النار) ١٩٨٢ ، و (بدايات القصة الليبية) ١٩٨٤ ، و (شوق الأجنحة إلي الرحيل) ١٩٨٥ و (البحث عن ليلي العامرية) ١٩٨٧ . كما كتب مثله الرواية كذلك لأنه نشر مؤخرا روايته الأولى (حقول الرماد) ١٩٨٦ . لكن أهم الأسباب التي تدفعني إلي دعوته بيوسف إدريس القصة الليبية هي أنه لا يركن إلي دعة إنجازاته القصصية ، مهما كانت أهميتها ، وإنما يعمل علي تجاوز كشوفه باستمرار ، والمغامرة بالقصة في بقاع بكر وأرض جديدة لم يسمع فيها وقع لقدم ليبية من قبل ، وهذا هو ما فعله في مجموعته الأخيرة (امرأة من ضوء) التي صدرت هذا العام ، والتي وضعت أحمد الفقيه بحق بين أبرز كتاب القصة العربية لأنها لا تنطوي علي إضافة كبرى للقصة الليبية وحدها ، وإنما تعد واحدة من الإضافات الهامة بالنسبة للقصة العربية في السنوات الأخيرة .

* * *

تحتل مجموعة أحمد إبراهيم الفقيه الأخيرة « امرأة من ضوء » مكانة متميزة في

لوحة القصة الليبية الحديثة . ليس فقط لأنها متميزة المذاق ، متفردة اللغة والأسلوب ، ولكن أيضا لأنها توشك أن تكون المجموعة الليبية الأولى التي تضيف شيئا جديدا إلى إنجاز القصة العربية القصيرة ككل . ذلك لأن الفقيه يتجاوز في هذه المجموعة الجديدة مواضعات القصص الواقعي التقليدي ، واستقصاءات القصة النفسية المكرورة ، ليلور تجربته الفنية الفريدة ، وإسهامه المتميز في القصة العربية ، إذ ينقص عن عالمه القصصي فيها كل المؤثرات التي أوهنت من تمايز مجموعاته السابقة ، ويدع بها لغته ومفرداته ، التي تقترب من تخوم الشعر حتى تصل الأجزاء الموزونة شعريا وذات الإيقاع المضبوط عروضها في القصة الأخيرة بالمجموعة إلى ثمانين في المائة من المتن القصصي . وحتى يصبح اللجوء إلى التدبير فيها وجهها بنائيا من وحوه الدائرة المحكمة التي تقتنص القارئ والشخصيات على السواء في شبكتها المراوغة المغوية معاً . ويؤسس عبرها عالمه القصصي الذي يتخلق من عملية المزج بين الحقيقة والخيال ، وبين الوقائع وتميمات الشخصية وهواجسها ، حيث تكتسب الرغبات قدرة تنويمية أو تعزيمية فريدة ، تجعل الحلم هو المحرك الأساسي للواقع . والحياة هي التي تحاكي الأمنيات . بالصورة التي تجسد معها ، هذه المجموعة القصصية الجميلة ، قدرة الفن علي خلق واقع بديل تنهض من ثنياه الأحلام وقد تألفت بحضور مدهش رائع وتنداح فيه الوقائع اليومية المألوفة والغريبة معاً في غياب باهت لا تستحق في حقيقة الأمر سواه .

فلم يعد النص القصصي في هذه المجموعة الجديدة امتدادا للواقع أو محاكاة لتضاريسه ومنطقه ، بل عمد النص إلى تأكيد استقلاله وتميز منطقته عن المنطق الواقعي ، الذي يحتفظ فقط بتضاريسه الخارجية ، بينما يخضع تلك التضاريس لمنطق مغاير كلية للمنطق الذي اعتدنا سيطرته على حركتها وتحكمه في إيقاع غيرها . ويعلن الكاتب عن منهجه هذا في المقتطف الذي يجعله مفتتحا لمجموعته أو منطلقا لقراءتها عندما يقول : « إنني أرفض الهروب من

الواقع بمثل ما أرفض أن أتورط في محاولة كاذبة لترحيله كما هو ، وأنا أعرف أني لا أستطيع . ولذلك فإنه لابد من وسيلة أخرى غير هاتين الوسيطتين الاثنتين . ومن هنا بدأت محاولتي للبحث عن الأشياء الخفية وراء الأشياء التي نراها ، أن يكون الفن عينا ثالثة ، نرى بها الوجود الآخر للأشياء ، ذلك الوجود الذي لا نراه بأعيننا . إنه محاولة للكشف عن أسرار هذا الواقع ودلالاته . إن الشيء الذي أراه لا يعينني في حد ذاته ، ولكن ما يعينني هو الدلالة خلف هذا الشيء ، كما أن الحدث لا يعينني في حد ذاته ، ما يعينني هو الدلالة خلف هذا الحدث .

(من حديث مع أحمد إبراهيم الفقيه أجرته معه مجلة « كل العرب » في ٢٠ يونيو ١٩٨٤) .

لكن تقديم الكاتب لهذا المنهج يكشف عن بعض أسرار الواضحة ، ويترك أهم ملامحه وإنجازاته دون كشف أو توصيف ، ربما لأن الكاتب نفسه هو آخر من يقدم لنا وصفاً دقيقاً لكل ما ينطوي عليه عالمه الفني من أسرار وربما لأن العمل الأدبي يتضمن في نهاية المطاف الكثير من الخصائص والإنجازات التي لم يتقصدها الكاتب ، والتي تنبثق بشكل عفوي نتيجة لآليات العملية الإبداعية البالغة الكثافة والتعقيد . إذ تكشف لنا قصص المجموعة عن أن الإنجاز الحقيقي لاستراتيجياتها النصية الجديدة ، ليس بأي حال من الأحوال الكشف عن أسرار الواقع و « لدلالاته » المخفية خلف تبادلاته المتعددة ، فهذا ما تحققه كل الأعمال الفنية على مختلف توجهاتها ، ولكن اكتشاف البنية العميقة لحركة تعامل الإنسان مع واقعه . ولقدرة الفن على تسيير الواقع من خلال آليات عمليات التقديم والتأخير ، والابرار والتشحيب . كما أن الكاتب لم يتخل عن الاستفادة من تكنيك الاعتماد على الخط المباشر بين العين والموضوع في الوصف ، وهو التكنيك الذي يبدو أنه يخلق إيهاما بالواقع ، ولكنه يستخدم هذا الأسلوب الذي يرتبط لعقود عديدة

بالكتابة الواقعية ، ليحقق به مقلوب هدفها ، وهو الإحاطة بكل إيهام بالواقع ، وإيهام علاقة النص به ، وتكريس سيطرة الوهم على ما تواضعنا على تسميته بالحقيقة ، والمزج المستمر بين الوقائع والأحلام والأوهام . وهو المزج الذي يبدو لأول وهلة وكأنه شىء مألوف ، ولا جدة فيه على مستوى من المستويات ، ولكن طريقة تناول الفقيه الفريدة هي التي تكسبه جدته ، حيث تتجسد أفكار الشخصيات وأحلامها ورغائبها ، وقد اكتسبت قدرة تنويمية أو تعزيمية فريدة ، تجعل الحلم يحرك الواقع ويفرض عليه منطق حركته الجديد .

ويلجأ الكاتب إلى مجموعة من الأساليب والمنطلقات الفنية لتحقيق ذلك ، ففي أولى قصص المجموعة ، وهي قصة العنوان ، يجعل مدخله إلى عالمه القصصي لحظة متألفة مقتطعة من ذكريات الطفولة المضمخة بوهج من صقوس العرس البدوي ، ونشوة الاكتشاف الحسي الأول . ثم ينطلق من هذا المدخل ، ليقدم قصة البحث الأبدي عن المرأة ، وعن لحظة الاكتشاف السحري الأولي لذلك الإحساس الخاص ، الذي يمتزج فيه الحب والنشوة ، بولوج العوالم الجديدة ، باكتشاف المناطق البكر والمحرمة ، أو بالأحرى قصة البحث الأبدي عن المستحيل ، عن الزمن الضائع المفقود الذي تحتفظ به الذاكرة حيا متوهجا يفوق في حيويته وفاعليته كثيراً من العوالم والوقائع الحقيقية . وفي رحلة البحث المضمنة تراكم الخيالات الصغيرة كمحطات متابعه في مسيرة العمر وتكتسب تلك الخيالات الصغيرة دلالات تفوق كثيراً حدود معانيها المباشرة . وكلما عرفت محطات العمر خيبة ، هرعت آليات التذكر إلى فراديس الطفولة تستمد من لحظاتها المنصرمة قوة جديدة لمواصلة رحلة البحث الأبدي من جديد . ومن خلال المراوحة الدائمة بين الواقع وزمن الذكريات المنصرم تتخلق مجموعة متراكمة من الدلالات لبطلة القصة «عائشة» التي تترد عبرها بعض أصدااء عائشة الخيام الشهيرة ، وقد امتزجت بأمشاج من الصراع الدائر في أغوار الشرقي دوماً بين المرأة الشرقية ذات السحر والمرأة الغربية

المتحررة المغوية . وما أن يعثر الشرقي الممزق بين الحضارتين على أحدهما حتى يظل يبحث في أغوارها عن المرأة الأخرى . وكأنه يتشوق عبثاً إلى جمع النقيضين في جسد واحد : إلى المزاوجة بين نقاء الطفولة ، وتوهج الحس الذي تشتعل شرارته كلما التقى الرجل بأنثاه المبتغاة . لكن استحالة التجربة ويناعتها معا هي التي تترك القصة في النهاية مشحونة بذلك الألق المترع بالتوتر .

أما القصة التالية « المرأة والكلب » فإنها تقتنص القارئ في شبكة تلك اللعبة الحاذقة : لعبة الوهم والحقيقة وقد أوقعت ببطلها قبله في شباكها المغوية . ولا غرو فالقصة تبدأ بتلك الجملة الحازمة ، « قررت في تلك اللحظة أن كل هؤلاء الناس الذين يمتلئ بهم هذا الميدان الكبير . . » وكأنها تفرض منذ اللحظة الأولى قرارات الفن على الواقع . وسطوة الوهم على الحقيقة . ومن هنا فإنها لا تصف لنا الميدان كما هو في الحياة ، ولكنها تتكئ على مظهره الوصفي لتقدم لنا ميدانها الصاخب بالحيوات المتهمة ، والقصص المخترعة التي يلفت نظر القارئ منذ البداية الصارمة إلى اختراعها ، ويوقعه مع ذلك في شبكتها التي لا تقل سحراً ونفوذاً عن أي شبكة تنسجها الوقائع وتصاريف المقادير . وتختار من بين شخصيات هذا الميدان العامر بالناس ذوي القصص المختلفة ، تلك المرأة الجميلة التي تخترع القصة أو يخترع الراوي لها كلباً رقيقاً تنزله به . ويدير مع الكلب وصاحبه قصة تردد بطريقتها الخاصة بعض أصداء رائعة تشيكوف الشهيرة « السيدة صاحبة الكلب » لأن العناصر التناسية من الأبعاد الهامة في هذه القصص ، ليس فقط لأنها توسع من أفق الدلالة فيها ، ولكن أيضاً لأنها ترهف من حدة الجدل بين أصوات القصص المتراكبة في النص . وتلفت أنظارنا إلى وجود درجة مراوغة من درجات التوحد بين صوت الراوي وصوت القصة ، أو الصوت المانح للقصص مشروعته ومصداقيته . والذي يجعل للسرد تلك القوة التعزيمية لأن ما يفرضه ذلك السرد على الوقائع والأشياء هو ما يعيشه الراوي على الفور . وكأن الكاتب -

وهو غير الراوي وغير صوت القصص - يريد لنا أن نمتحن مصداقية تلك القوة السردية السحرية من خلال تجسيدات كوقائع جديدة في حياة الراوي التي تتدفق أمامنا على الورق . ويصل هذا الامتحان ذروته عندما يقرر الراوي أن يطلق الرصاص على الكلب ويرديه مجنحاً في دماؤه . عند هذه اللحظة يحس أن للكلب الوهمي الذي يضحى به علي مذابح هذا الاخفاق المر في لعبة السعي الأبدي إلى التواصل مع المرأة ، وجوداً لا يقل حقيقة وصلابة عن وجود أي كلب حقيقي . فنلتاح للإجهاد عليه ، وقد اكتسب إلى جانب دلالاته المحددة قوة رمزية كانت السبب في مصادرة عدد مجلة (الكفاح العربي) الذي نشرت به القصة ، ذلك لأن راوي القصة ، وقارئها معا ، يكتشمان في عملية التلقي الشائقة ، التي تلتحم فيها فاعلية السرد الداخلية بآليات عملية الاستحابة الأدبية للنص ، أن الانسان لا يستطيع دائماً التحكم في الأوهام التي يخلقها ، أو في الأكاذيب التي يمنحها وجوداً وحياة ، وإن هذه الأوهام ما تلبث أن توقع به في قبضتها المحكمة وتربص به شراً .

لذلك كان من الطبيعي ، وللمجموعة بنيتها التكاملية ، أن تجسد لنا القصة التالية « المحطة الأخيرة » جانباً من جوانب هذا الشر الذي يحدق بالراوي في عالم تتمتع فيه الأوهام بقدرة تفوق تلك التي تتشع بها الحقيقة ، فما أن يدلف البطل إلى مقصورة القطار في رحلته ، التي لا نعرف لها غاية ، حتى يجد تلك المرأة الجميلة : إحدى العائشات الزائفات اللواتي لا يتكشفن ابداً عن عائشة الحقيقة ، وقد اتشحت هنا بمئزرها الملئ بالنمائم ، ودست وجهها الساحر في كتاب سميكت يتسلى به طوال الرحلة ، وتنشغل به عن العالم من حولها ، وتذب به عن نفسها عبث الفضوليين الذين يتسقطون الفرص للحديث مع امرأة جميلة تسافر وحدها في هذا القطار . ولما لم يكن مع راوينا ، وللقصص كلها راو واحد لا يتغير يسردها علينا جميعاً بضمير المتكلم وكما وقعت له ، أي كتاب يتسلى به على تحمل مشقة الرحلة الطويلة ، فقد

شغل نفسه بالتفكير فيما عساه يكون أمر تلك المرأة الجميلة ، وما عساه تكون حياتها وترسم له خيالاته حياة مصنوعة من أديم قصص « الوحش والجميلة » التي تولع بالقران بين المتناقضات ، وتعقد أغرب العلاقات بين منتهى الجمال والرقه ، ومنتهى القبح والجلالة الوحشية ، وتتمادى به خيالاته حتى تقتحم أدق دقائق حياتها مع هذا الرجل الفظ الذي جعله الرجل الثاني في عصابة للتهريب ، يستعذب تعذيبها ، ولا يحلو له أن ينضو عنها ثيابها إلا تمزيقا ، ولا أن يأتيها الا عنفا واغتصابا ، وهو رجل لا خلاق له ، يشبعها تعذيبا ويحرم عليها مخاطبة الغرباء ، ويهددها بالقتل إن هربت منه . ويرسل العسس لتحصي عليها تحركاتها .

وما أن تصل به أفكاره إلى هذا الحد حتى يشفق على المرأة الجميلة . ويشرع في اختطاط الخطط لإنقاذها من براثن هذا الرجل القبيح ، الذي لا يناقضها في كل شيء فحسب ، ولكنه يكبرها كذلك بثلاثين عامًا . وراوينا ، كما لا بد أن خمنت أيها القارئ العزيز ، يماثلها عمرا أو هو على الأقل أقرب إليها عمراً وطبيعة . وما أن يعد راوينا الخطط لإنقاذها في خياله ، دون أن ينبس ببنت شفة ، ويصل فيها إلى حد إيداع هذا الرجل الفظ الذي يتحكم فيها ويعذبها وراء القضبان . حتى تنهص المرأة ، وقد ملأها الهول ، وتصفعه بعنف على وجهه وهي تصرخ « ايها النذل ! ما شأنك أنت بي حتى تأتي بهذه الخيالات المريضة ، من أعطاك الحق في أن تتدخل في شئوني ، أو تفكر بالنيابة عني . إنها حياتي ، وأنا حرة فيما أفعله بنفسي » ولا تغمر هذه الصدمة الراوي وحده بالذهول ، ولكنها تصيب القارئ كذلك بالدهشة وهي الدهشة التي ما تلبث أن تتصاعد حداثها عندما يصل القطار إلى المحطة الأخيرة ، ويطل الراوي من نافذته ليجد أن العملاق الذي يناهز الخمسين ، والذي رسمه لها في خياله ، برأسه المفلطحة ووجهه القبيح المليء بالتواءات ، والعصابة التي تخفي عينه المفقودة في إحدى مغامرات العصابة الخائبة ، واقف ينتظرها على

رصيف المحطة . هنا تتحول الصدمة إلى كشف ويتحول المناخ السحري القريب من مناخات القصص إلى واقع كابوسي مبهظ ، لا تنتهي فيه القصص بالنهايات السعيدة التي تتخلص فيها الحساء من برائن الوحش ، بل يلقي فيه كل من يحاول أن يعيد للأمور مطلقها الطبيعي ويخلص الجمال عامة من القبح ، جزاء سنهار .

وهذا أيضا ما نلمس بعض جوانبه في القصة التالية « شمس الأمهات » التي تتناول جانبا آخر من جوانب هذا الصراع الأبدي بين نوازع التحرر في الشخصية العربية ، وقيود التقاليد التي تشد هذه الشخصية إلى ماضيها ، أن رغبة الراوي المثقف في اختيار شريكة حياته ، ومعرفتها بشكل عصري قبل الزواج ، تتعارض مع تصور كل من الأم الراغبة في تزويجه بطريقتها الخاصة ، ومع تقاليد المجتمع وأعرافه الراسخة ، لكن ذلك الموضوع الذي يطفو على سطح القصة قديم قدم بدايات القصة العربية ، أشبعته مختلف المعالجات القصصية بحثا وتقليدا ، أما الجديد هنا فليس طريقة السرد الفريدة وحدها ، ولا حتى اللغة القصصية المرفهة ، ولكن طرح القضية من منطلق جديد : هو منطلق الإنسان العصري المسكون ، برغم أفكاره الجديدة ، بكل أشباح الرؤى والتصورات القديمة . هذا الطرح هو الذي يتيح للفقيه أن يمارس لعبة الجدل المستمر بين الخيال والواقع ، وبين الأوهام التي تسكن الشخصية وتفاصيل الحياة التي تعيشها بعد أن قررت تحدي التقاليد في الخارج دون أن نفطن إلى أن التحدي الأكبر كامن في التغلب على التقليد والتصورات القابعة في داخل الشخصية لا خارجها ، وأن وهم الحرية غير عملية التحرر الحقيقي الصعبة والمعقدة . ومن هنا تكتسب نهاية القصة المرة وقعها الأليم على القارئ والشخصية علي السواء عندما تضيق تلك التقاليد الداخلية الخناق عليه وتضعه على حافة الجنون بعد أن سلطت عليه جحافل أوهامها ، فيستسلم لما

تلمية عليه من انصياعية قاسية مبهظة ، لا سبيل للمكافئ منها غير الجنون . ولا مفر إذا ما رغب في تحديثها من جنون من نوع آخر .

لكن تري هل الجنون أكثر سوءا من هذا الاذعان الرهيب ؟ هذا ما تسعى القصة التالية « الجنون » إلى الإجابة عليه ، لأنها تطرح علينا آليات الجنون وقد بدأت في التخلق من موقف مستحيل مشابه : موقف انفتاح الأفق للحظة أمام الشخصية ثم انغلاقه مرة أخرى أمام عينيها من جديد : موقف أن يلوح الحلم أو الأمل في الخلاص أمام الانسان ، لكنه ما يلبث أن يتزعزعه لأسباب غبية ومفارقات غير مفهومة ، فما ان لمح راوينا « فرح » التي يجب ألا تخفى علينا دلالات اسمها ، وقد صيغت من هذا المزيج العذب من أحلام الطفولة وصبوات الشباب حتى توهم أن العالم قد اخذ يبتسم له ، وحتى سرى تيار من التواصل الداخلي بينه وبين حلمه المبتغى « فرح » ويعيش عدة أيام وقد امتلأ بالحياة ، وأخذت تتفجر فيه طاقات الخلق والتواصل والإبداع . لكن « فرح » المبتغاة ، وقد جاءت إليه في الموعد المضروب عبر تيار التفاهم الداخلي الدفين ، ما تلبث أن تمنعها الروادع والتدخلات الغبية من الاتصال به إلى الأبد ، فيسقط في هاوية الجنون السحيقة : جنون الحرمان من التواصل ، والبقاء في صحراء العزلة والحصار ، يعاني من الاغتراب وهو لم يزل بعد في وطنه ، ولذلك ليس غريبا أن تقل وطأة عزلته واغترابه عندما يغادر بلده . ويلتقي بهذا « الرجل الايرلندي » تلك الشخصية الساحرة والساخرة معا والتي تهب اسمها عنوانا للقصة التالية التي توشك أن تكون تكملة للقصة السابقة تريد أن تخلص بطلها من نير الجنون وناره الموقدة . ذلك لأن « الرجل الايرلندي » تعد في مستوى من مستوياتها دراسة في آليات الاغتراب والتواصل . في الوقت الذي تناول فيه شخصيات المدن وطرائقها المختلفة في التعامل مع الغرباء من أبنائها ومن أبناء المدن الأخرى معا .

أما آخر قصص هذه المجموعة وهى « رسالة اعتذار إلى ليلي من رجل لم يعرف كيف يحب » فإنها القصة التى تسعى إلى موضعة عالم المجموعة في واقعه السياسي والاجتماعي والتاريخي ، دون مفارقة منهجها الأثير في إكساب كل مقولاتها العامة بعدا شخصيا ونفسيا ، بل وذاتيا . لكن تصريحها الافتتاحي : « إني احبك ، إني احبك ، لكنني رأيتك حين دخول جيوش الروم إلى القدس العربية بتسمين . كنت أداري خجلي وأمسح عن ثوبي دما يتدفق من صدري » يطمح إلى وضع عالم المجموعة ككل في واقعه الحضاري والتاريخي ، واقع سنوات ما بعد الهزيمة ، وسقوط القدس العربية في أيدي الصهاينة أعداء الأمة العربية الألداء . ويسعى أيضا من خلال التركيز على عنصر الإيقاع الشعري ، ووزن معظم أجزاء هذه القصة عروضيا ، إلى اضافة وضع خاص على هذه القصة باعتبارها الحركة الأخيرة في معزوفته القصصية . بحيث أننا لو حذفنا أدوات العطف من كثير من أجزائها وأجرينا بعض التحويلات البسيطة فيها ، لوجدنا أننا بإزاء نص موزون عروضيا .

ويلعب الشعر ، بتميزه المتعمد عن اللغة الشعرية العادية التي يلفنا كتاب القصة بها مجموعة من الأدوار الأساسية : أهمها إثراء الدلالات وتعدد مستويات المعنى ، وما يمكن تسميته بعملية التغريب التي تقتصد كسر آليات الإيهام بالواقع أو التوحد مع الشخصيات ، ومنها إبراز اختلاف اللغة وبالتالي الموقف ، عن اللغة اليومية والموقف الواقعي . وهذه كلها من الوظائف الضرورية بالنسبة لهذه القصة خاصة ، وللمجموعة ككل ، ليس فقط لربط كل عالمها الخيالي والحلمى بالواقع أو الإطار المرجعي الذي صدر عنه ، ولكن أيضا لتحقيق ما يمكن تسميته بصدمة التنبيه في نهاية المجموعة . حيث يدرك القارئ من خلال هذه المعزوفة القصصية الجميلة عن ضياع فلسطين ، وعن مسؤوليتنا عن هذا الضياع ، وبالتالي عن ضرورة العمل على تخليص تلك الأرض العربية الجميلة من الأسر ، إن لكل قصص المجموعة مشاغلها

السياسية ، وأن الجانب البادي في تلك المصوص القصصية الشائقة ، ليس إلا أحد مستويات المعنى فيها أو أحد وجوه الدلالة ، لأن وراء هذا الجانب الذاتي الذي يبدو فيه الكاتب مشغولاً بقصص الحب ومغامرات البحث عن المرأة المثال ، مجموعة كبيرة من الهموم السياسية والقومية التي لا تخفي تفاصيلها على القارئ الفطن الليبي . . ذلك لأن هذه القصة الهامة تلفت الانتباه إلى مجموعة من المحاور الأساسية في تجربة هذه المجموعة القصصية . إذ تكشف لنا عن أهمية الالتفات إلى تغير الوجوه دون أن ينطوي هذا التغير في الواقع على أي تغير حقيقي . فقد تتابعت عساكر الروم والفاشية والصهيونية وأمريكا على وجه الأمة العربية دون أن يؤدي هذا التتابع إلى أي تغير حقيقي في جوهر حالة الاستلاب التي تعاني منها حبيبته العربية « ليلي » ، أو يوهن من مسؤولية بنيتها الذين لم يعرفوا كيف يحبونها فيحول حبهم ذلك بينها وبين السقوط .

عن صحيفة العرب - لندن - ٣٠ / ١١ / ١٩٨٧

مرايا فينيسيا

وأخيراً فينيسيا

أسطورة الماء والحجارة

قدح النبيذ المعصور من كروم الآلهة

عرس الفن والجمال الذي يتجدد بتجدد الفصول

هأنذا احقق حلم الوصول إلى عتباتها المباركة . اتنسم عبق تاريخها . أعلق
البصر بشرفاتها العالية وكأن لي حبيبة تنتظرنني في كل شرفة . أتأمل النقوش
والزخارف التي تزين أبوابها وجدرانها ومراياها . اكحل البصر بعرائش الورود
التي تتسلق قرميد أبنيته الحمراء . أدخل الدائرة السحرية التي تفصلها عن
عالم الحروب والصراعات وتجعل منها مكاناً فريداً ، يسبح في زمن قديم أبهى
وأجمل من هذا الزمان . هأنذا أتحوّل إلى جزء من هذا المشهد الاحتفالي الذي
تضج به سوارعها وقنواتها وقناطرها ، وتغمرنني أمواج البهجة التي تفيض من
وجوه أهلها وزوارها ، فأنزع وجهي القديم واستبدل به وجهها جديداً ، وسيماً ،
يليق بمجد بهائها .

لقد هففت أشرعة القلب إليها ، سنين قبل هذه الزيارة ، التي ظلت حلماً
لا يفارق ذاكرتي منذ أيام الصبا ، تغذيه الأغاني والأفلام وكتب التراجم
والرحلات وقصائد الشعر التي منحته لقب «اجمل مدينة في الدنيا» . جئت إلى
روما في عمل صحفي ، وما أن انتهى العمل ، حتى بدأت أيام الحج إلى هذه
المدينة .

وصلتها في ساعة متأخرة من الليل ، واخترت غرفة بفندق صغير يشبه بيتا عائليا ويطل علي القناة الكبرى ، فلم أنم سوى ساعتين ، استيقظت بعدهما مفعما بالحيوية ، متلهفا لأن اعانق فينيسيا وأطفئ حرقه قلب ظامئ للقاءها .

هأنذا أثب فرحا فوق جسورها التي لا تحصى ، وأطوف كالمجدوب بكل تمثال من تماثيلها ، أو نافورة ماء من نوافيرها ، وأغوص في زحام الفرح الذي يصنعه أقوام جاءوا من شتى بقاع الأرض ، لينعموا بهجة اللقاء فوق هذا الارخبيل الصغير من جزائر الحلم . فأجد أن الألفة التي تصنعها فينيسيا قد ربطت بيبي وبينهم ، وصرت أتبادل الحديث معهم في سر وعفوية ، وإشارك في الحفلات الراقصة التي يقيمونها حول العازفين المتجولين ، وأركب معهم المراكب التي تأخذنا في نزهة عبر قنوات المدينة ، وأردد بعض كلمات الاغاني التي يتفنن الملاحون في ترنيمةا .

كنت قد احترت أن أتجول في دروب المدينة دون خطة مسبقة ، مستمتعا بهجة الاكتشاف والمغامرة ، التي سوف تفسدها الخرائط وكتب الدعاية ، أو حتى الاستعانة بالأدلاء والمرشدين السياحيين . كنت أركب العبارة دون أن أعرف وجهتها ، وأمضي مع الطريق دون أن أعرف إلى أين يفضي ، تثير مخيلتي المشاهد التي ألتقي بها صدفة ، بما في ذلك سوق الغلال الذي قادني إليه هذا التوهان الجميل . فوقفت ذاهلا اتفرج على معروضاته وقد تفنن اصحاب الدكاكين والعربات في رصها وتصنيفها ، وصنعوا منها أشكالا وتكوينات فنية ، يراعى فيها حساب النسب وتجانس الألوان ومواقع الأضواء والظلال ، وتتحول حبات البرقوق والعنب والطماطم إلى تحف ذات قيمة فنية تتجاوز قيمتها كطعام للبطن . كان سوق الخضار هذا اكتشافا ، بمثل ما كان اكتشافا مدهشا ان أجد نفسي أسير في مدينة لا تدخلها السيارات ، وأن بإمكانني ان انتقل حرا بين الأرصفة وأمشي وسط الشارع ، دون أن أخشى على

نفسي الموت بين مغالب تلك الحشرات الحديدية الكريهة ، ذات الدخان والعواء . إن غياب السيارة يؤكد في نفسي هذا المعنى الذي يجعل من فينيسيا مدينة تنتمي إلى زمن آخر، وعالم آخر، مدينة لا تشبه إلا نفسها .

كنت قد وصلت إلى أكثر ميادين فينيسيا شهرة ، ميدان سان مارك . عرفت وأنا أركب الجندول أننا نقرب منه قبل أن نصل اليه . فقد لاحت من بعيد قباب البرج وكنيسة سان مارك وقصر الادواج ، كما لاحت واجهات الابنية التاريخية التي تعج شرفاتها وأسطحها بالتماثيل ، وظهرت أفواج الحمايم التي ترفرف فوق تلك القباب والاقواس والحراس الحجريين ، وتناهى إلى سمعي صوت العزف الاوركستراي تعزفه فرقة عرفت فيما بعد أنها تتخصص في عزف موسيقي فاجنر، الذي أقام زمنا يؤلف سيمفونياته في بيت يطل على الميدان . وما أن وصل الجندول إلى الرصيف ، حتى انبثق امامي ذلك المهرجان من الأضواء والألوان والإيقاعات . الدكاكين التي تبيع التحف والهدايا . المقاهي ذات الواجهات المصنوعة من زجاج ملون ، وما اكتظت به من مرايا ولوحات وزخارف . كرنفال الأزياء التي يرتديها السواح وما يصنعونه من ضجيج بإنشادهم ورقصهم وآلات تصويرهم . دخلت الميدان ووقفت امام مقهى «فلوريان» استحضر قراءتي عن هذا المقهى الذي شهد مجالس الأدباء الذين قضوا وقتا هنا يتبادلون الأنخاب مع أصحابهم وصاحباتهم ، الفونس دوديه ، جورج ساند ، جولدوني ، اوسكار وايلد ، توماس مان ، هيمنجواي . انثالت على الذاكرة مشاهد المسرحيات التي اتخذت من هذا المكان ميدانا لأحداثها . هنا وقف شايولوك تاجر البندقية الشهير يطالب غريمه انطونيو برطل من لحم جسمه ، وهنا كان ياجو ينسج مؤامراته ضد عطيل مستخدما ديدمونه وكاسيو وريدريجو وايميليا ، وهنا كان كازانوفا يتسلق الشرفات إلى مخادع حبيباته . ها هو الفن يصفى خيوطه بخيوط الواقع ، ويعزز عمق الوشائج التي تربط بيني وبين هذه المدينة ، ويجعل من زيارتها عيدا لاتصاهيه أعياد أخرى تأتي بحكم

العادة والروتين ، لا بحكم العلاقة الحميمة التي تبني جسور حب تشدنا إلى المكان والزمان .

رأيت وأنا أطوف الميدان فتاة ترتدي قميصا قطنيا يظهر جمال نهديها ، وترفع إلى فمها كوب الآيس كريم الذي أضفى توردًا على شفثيها ولسانها ، وقد وقفت بمفردها أمام تمثال علي اعتاب قصر الادواج ، فاقتربت منها ، ووقفت إلى جوارها أتأمل تمثال الأسد المجنح الذي جعلته فينيسيا شعارا لها ، وأحاول أن استذكر الأسطورة التي ارتبطت به والتي جعلت منه كائنا حقيقيا يحرس المدينة . كنت قد أعددت بعض الكلمات لأستهل بها الحديث مع هذه الأنثى الشهية ، بأمل أن أفوز بقضاء ساعة او ساعتين في صحبتها ، وقبل أن أفتح فمي بالكلام ، تنهت فجأة إلى الرجل الذي يقف علي مسافة أمتار مني ، وينطرح ظله تحت قدمي . وداهمني يقين جازم بأن الرجل يتبعني ، إذ ليس صدفة أن اراه في ثلاثة مواقع مختلفة يقف قريبا مني . ظننت وجوده في المرتين السابقتين مجرد صدفة ، وقد سقط الآن حساب الصدفة ، ولم يبق سوى حساب الخطة التي يدبرها لي هذا الرجل . هذا ما صار يشغل ذهني ، بحيث لم تعد فيه مساحة للمرأة او التمثال . تركتهما ، ومشيت مسرعا اخترق الجموع التي تتزاحم حول الرسامين والموسيقيين وتلتقط الصور التذكارية بصحبة حائم الميدان . ولم اقف حتى وصلت الجانب الآخر . وعندما استدرت لأرى ماذا فعل ، وجدته قد ترك مكانه وجاء يتبعني ، ثم وقف محتما بعدد من الناس لكي لا آراه وهو يراقبني . تحولت إلى كتلة أعصاب مشحونة بالغضب . ما الذي يدبره لي هذا الرجل ؟ وما الذي يريده مني ؟ وأي شيطان ساقه لمطاردي ؟ لم أستطع ان اجد تفسيرًا ، ولم اعرف كيف سأواجه هذا الموقف الذي باغتني وأنزل الخوف في قلبي . وجدت نفسي مرة أخرى ابحث عن نقطة أمل في ان الرجل لا يطاردني وانما هو سائح مثلي ، اثار فضوله شيء في سحتتي وطريقة ملبسي ، فأنا فعلا أرتدي طقمًا كاملا ، بخلاف أغلب الناس الذين ارتدوا

ملابس خفيفة تتفق وهذا الشهر الذي ينبيء بمجيء الصيف . أو لعله رأي
أشبه شخصا يعرفه واراد أن يتأكد من ذلك فجاء ورائي . وهأنذا أقف الآن
أمامه معزولا عن الزحام ، ليدرك أنني لا أعرفه ولا يعرفني ، وأن عليه أن يمضي
في طريقه ويتركني . سرت بمحاذاة الحائط ، حتى صادفني متجر يبيع المرايا
والتحف الزجاجية ، فدخلته ، كان متجرا كبيرا يشبه متاهة المرايا في مدن
الملاهي ، يفضي إلي مقصورات علوية ، مما يوحي بأنه قصر قديم أحالوه إلى
متجر للسواح . صعدت السلالم واجتزت ممرا طويلا حتى وصلت إلى أبعد
هذه المقصورات . ولم تمض سوى برهة قصيرة حتى رأيت صورة الرجل
معكوسة في المرايا التي تغلف الجدران . غائر الخدين ، ذو سحنة ترابية ، تبرز
عظام وجهه وجبينه بروزا منفرا ، وقد صنعت له أواني الزجاج ندوبا تغطي
وجهه الذي تشظى وتكسر فوق هذه المربعات والمكعبات فبدا كأنه عشرات
الرجال الذين يحاصرونني بملامح شائهة ممسوخة . استدرت نحوه ، وألقيت
عليه نظرة اشمئزاز . ثم اندفعت أهبط السلالم ، وما أن وصلت خارج المتجر
حتى انعطفت بسرعة في شارع جانبي واخذت أعدو . بكل ما أملك من خوف
صرت أعدو وأعدو ، فلعلني استطيع ان افلت منه ، وإن لم استطع ، فيكفي انه
لن يدركني في هذا الزقاق الفارغ الذي ادارت فيه الابنية وجهها إلى الناحية
الآخرى . ألقيت نظرة من فوق كتفي وأنا أعدو ، فإذا به يعدو خلفي . وصلت
إلى الباحة التي يفضي إليها الزقاق ، منهكا ، مقطوع الأنفاس ، ألهث وانتفض
شهيقا وزفيراً . وضعت يدي على صدري ووقفت بين الناس أتلفت حولي في
ذعر . انها اول مرة في حياتي اواجه فيها موقفا كهذا . لعلني كنت موضع مراقبة
في زمن مضى ، ولعلني اهديت إلى مخبر يتصنت علي حديشي في المقهى ، ولكن
ان اري رجلا لا اعرفه يطاردني ويعدو خلفي ، فهذا ما لم اصادفه خلال خمسة
واربعين عاما من وجودي فوق ارض البشر . وفداحة المأساة ان هذا يحدث لي في
مدينة ازورها لأول مرة . وازورها بمفردي ، لا احد معي ولا اعرف احدا ألجأ

اليه . تحركت من مكاني دون ان احدد هدفا امضي اليه . تعطلت كافة الملكات والحواس التي كانت تستقبل بالفرح والاندهاش مظاهر الحياة في هذه الباحات والاسواق صار ذهني كله مشدودا إلى هذا الرجل . استطيع ان اراه يسير خلفي حتى وان لم التفت اليه . اسمع خطاه وحده رغم آلاف الاقدام التي تضرب الارض . ألتقط صورته حتى وهو غاطس وسط الزحام ، وأميز ظله من بين كل هذه الظلال التي تقف وتمشي وترقص . صادفت صندوق الهاتف العمومي ففتحت الباب ودخلت الغرفة الزجاجية الصغيرة ، بأمل ان يمنحني وجودي في هذا الصندوق ، منفردا بنفسي ، شيئا من الاحساس بالامان ، وكأنني اخدع نفسي وأوهمها بانني اختفيت منه في احدى المغارات . ولكنها للأسف مغارة من زجاج ، لا تخفيني عنه ولا تخفيه عني . سأتظاهر بانني اهاتف احد الناس ، لكي أبرر وجودي وسط هذا الصندوق . رفعت الساعة ، وأدريت قرص الهاتف ، وألقيت كاذبا بالعملة المعدنية في الحصالة ، وصرت أتكلم وأشير بيدي نحوه ، لعل هذه الحيلة تقنعه بانني لست وحدي ، وأنني استنجد الآن بعدد من صحابي الذين سيأتون لمؤازرتي ، ولكنه يتسمر في مكانه دون أي اعتبار لهؤلاء الاصدقاء الوهميين . أطلت البقاء في الصندوق لأمنح نفسي فسحة للتفكير والاهتداء إلى طريقة تخرجني من هذا المأزق . لاشك أنه عرف بأنني غريب ووحيد في هذه المدينة ، واعتبرني صيدا سهلا يستطيع ان يسلبه نقوده تحت تهديد السلاح حال ان ينفرده في مكان خال . او لعله مكلف بمهمة تصفيتي لحساب شركة من الشركات المتعددة الجنسية ، ذات العلاقة بالمافيا العالمية ، عقابا لي لانني شاركت في احدى الحملات الصحفية ضدها . انني هنا في بلاد المافيا ، والقتلة الذين يبيعون مهارتهم الاجرامية نظير حفنة من الليرات ، فما الذي يمنع ان يكون الامر كذلك ؟

سأخرج الآن من هذا المربع الزجاجي ، ولكن إلى أين ؟ لابد ان اخرج . فقد نشأ طابور صغير ينتظر ان يستخدم الهاتف ومنهكا ، يائسا ، أغطس في

سحابة من الافكار السوداء ، خرجت أجرة اقدمي عائدا إلى ميدان سان مارك . سأحتمي هناك بالزحام والحمام والتمثيل والتصاوير والموسيقى وسأنتظر ان يفرد لي تمثال الاسد المجنح جناحيه ، فاستخدمهما بساطا سحريا يطير بي وينجيني من شر هذا الرجل . عقلي عاجز عن الاهتداء إلى طريق للخلاص ، لا أرى حلا لمشكلتي إلا بحدوث معجزة .

ها هو ميدان سان مارك ، الذي كان كعبة احلامي ، يتحول إلى مسرح لأكثر الكوابيس رعبا . لقد أفسد هذا الرجل كل شيء . تهالكت فوق أول كرسي صادفني وطلبت كأسا من عصير البرتقال أجفف به حلقي . جلس الرجل إلى طاولة قريبة ، وأومأ إلي رجل يقف في الزحام ، فجاءه مهرولا . همس له ببعض الكلمات وأشار اليه ان ينصرف . تيقنت من أنه صاحب سطوة ونفوذ بين افراد عصابته ، وانه يستنفرهم لإحكام الحصار حولي . تجولت ببصري بين زبائن المقهى ، بأمل أن تسعفني الاقدار برؤية انسان اعرفه ليكون طاقة امل تخرجني من كهوف الرعب . يرتد بصري خائبا ، فلا أجد سوى هذا الرجل الذي أحس بدبيب نظراته فوق عنقي وظهري . هل اذهب اليه الآن واسأله بكلمات صريحة عما يريد مني ، فإن كان نقودا ، سأمنحه كل ما معي لاعتق نفسي . لكنني أخشى ان يكون الرجل بانتظار مناسبة كهذه ليشتبك في عراك معي ، ويغرز سكينه في صدري ، معتمدا على انه سيجد من زبائن المقهى من يشهد بانني انا الذي ذهبت اليه حيث كان جالسا وبادرت به بالعراك . طردت الفكرة من رأسي ، كما طردت فكرة أخرى تدعوني للاتصال بالشرطة . اذ ماذا سأقول لهم عندما يفتحون لي محضرا ويسألونني لماذا وكيف ومتي واين ، واذا قلت ما اعرف فهل سيصدقون روايتي التي لا تقدم تبريرا لهذه المطاردة ولا سببا ، واذا صدقوها فما الذي سيفعلونه . لعلهم سيضعونني في الحجز حماية لي ، فهل هذا ما أريده ، او لعلهم يستريبون في امري ويبدأون هم ايضا بمطاردي ، وتكون النتيجة أنني أدرا شرا بشر اكبر منه . وانتهى تفكيري إلى انني

لم اقم بما يكفي من جهد لكي اراوغ الرجل واتحاييل عليه حتى اضيع منه في الزحام . يجب ان استعين بكل ما يمكن ان اهتدي اليه من فنون المكر والمراوغة حتى أضلله واهرب منه . حاسبت عامل المقهى ، وسرت متمهلا باتجاه الرصيف الذي تقف عنده المراكب . صرت ازاحم الناس كي اوهمه بانني سأركب مع الراكبين ، وما ان بدأ المركب يأخذ حمولته حتى احنيت رأسي ليكون دون مستوى الزحام وتسلفت بسرعة إلى حانة قريبة هي حانة « هاري » . كانت الحانة تكتظ بالدخان والزبائن وصور أنست هيمنجواي المعلقة علي الجدران باعتباره صاحب الفضل في شهرتها عندما أشار إليها في بعض اقاصيصه . حانة تشبه المغارة ، صغيرة وضيقة ومعتمة ، زادها ضيقا هذا الجزء الذي اقتطعوه وجعلوه مطعما . ولأنني لست صاحب مزاج يأنس لمثل هذه الحانات ، فقد أحسست بهذا الجو الخائق يضيف ضيقا إلى ضيقي . ولكنني أرغمت نفسي على البقاء ، بأمل ان اكون قد افلحت في تضليل الرجل الذي يطاردني . ورغم نفوري من تناول الخمر ، فقد قررت ان اشرب كأسا ، عله يساعد في تبديد هذا الضيق . طلبت كأسا من الكحول مخلوطا بعصير الفاكهة لكي استسيغ ابتلاعه . ألقيت به في جوفي ، واتبعته بكأس ثان . احسست بالكحول يحرق صدري ، ولكن شهابين احسست بهما يكويان ظهري وينسياني حرقه الخمر . كان الرجل يقف وسط زحام الحانة خلفي ، بتواءات وجهه المعصور ، وعينيه الغائرتين وسط عظام الجبهة ، كأنه تجسيد لوجه ملاك الموت الذي يرسمه الرسامون على صورة جمجمة . وألهمتني هذه الفكرة التي تربط بين وجهه وبين ملاك الموت فكرة اخرى . نحن جميعا نعرف ان الموت يطاردنا ، ولا ندري في اية لحظة او في اية بلاد سوف يباغتنا ، ومع ذلك نهمله ونتاجاه لكي لايفسد التفكير فيه حياتنا . فلماذا لاأتعامل مع هذا الرجل بذات الاسلوب . لماذا لا اطرده من فكري وأنسى انه يتابعني ، واحاول ان انعم بأجازتي كغيري من السائحين . خرجت من الحانة وقد قررت ان استأنف جولتي منذ تلك

اللحظة التي قاطعني فيها هذا الرجل . سأعود إلى حيث كنت أقف امام اسد الاسطورة، وسأبحث عن ذات المرأة التي كانت تلحق الأيس كريم، وسأستحضر ذات الكلمات التي كنت سأقولها لها، لأقولها الآن، وسأعتبر ان هذا الرجل لا وجود له فوق الارض، لكي أستطيع ان اهنأ بحياتي، وأنسج علاقة حب بمثل ما كان يفعل الأدباء الذين زاروا فينيسيا، هذه المدينة التي قدمت للعالم عظم عاشق في التاريخ، ودارت فوق ارضها اعظم قصص العشق التي سجلها كازانوف في مذكراته . وإذا كانت تلك الفتاة التي تحب الأيس كريم، لم تستطع انتظاري كل هذه المدة، فهذا هي سائحة اخرى تقف والبسمة لا تفارق ثغرها وسط حلقة تنعقد حول فرقة غجرية من ضاربي الطبل والجيتار. تسلفت قريبا منها، وألقيت بتعليق عابر يحمل الاعجاب بما أسمع وسألتها رأيها كأننا اصدقاء قدامى . اكتشفت انها لا تجيد الانجليزية فهي طالبة ايطالية تدرس الفنون في جامعة فيرونا القريبة، اسعفتني الذاكرة ببعض الكلمات الايطالية الدارجة التي اختلطت باللهجة اللبينة منذ ايام الصراعات والحروب بين البلدين . وجاء ذكر فيرونا، فكان لابد ان يأتي ذكر روميو وجولييت وقصة هذا الغرام الذي اقترن بمدينتها . بدا الجو عامرا بالألفة والمودة والدفء الانساني، يفتح الشهية للمرح والاحتفال بالحياة، مما أغراني بأن أعيد ترتيب المشهد من جديد، وأجعل هذه الفتاة تأخذ شكل المرأة التي فارقتها بجوار التمثال . اشتريت قطعتين من بائع الأيس كريم ووضعت واحدة في يدها، لأرغب بعد ذلك جمال وإغراء هذا التورد الذي طرأ علي فمها وطرف لسانها . وجاءت دقات الطبل تضرب مراكز الحس وتطرد الخمول والاستكانة، فانشأ الناس حلقة ترقص حول العازفين وتشملني معهم، فأشاركهم الرقص والتصفيق والغناء . تصورت انني فعلا قد نجحت في اعادة السكنينة إلى نفسي، ولكن ذلك لم يستمر غير لحظات قليلة، لأنه ما ان توقف الرقص، حتى وجدت نفسي في مواجهة ذلك الرجل . كنت مازلت مصمما على إهماله،

راغباً في ان اتمكن من متابعة برنامجي حتى أرى كل معالم المدينة ، لكي لا اغادرها بقلب تملأه الحسرة لانني اغفلت رؤية اثر واحد من آثارها . ذهبت فتاة فيرونا بصحبة اترابها ، وواصلت انا التسكع على ضفاف القناة الكبرى التي تسميها كتب الرحلات ، أجمل شارع في الدنيا . شارع من ماء ، تتهادى فوقه المراكب التي تشبه متاحف عائمة ، وتحف به البيوت التاريخية التي تنطق بثرأ فينيسيا في فنون العمارة ، وتنتشر علي ضفتيه المطاعم والمقاهي واندية اللهو التي تتبارى في ارتداء أبهى الزينات ، ولكن من اين لي عقل يستوعب هذا الجمال ، والرجل لا يغفل عني لحظة واحدة . جاءت رائحة الطعام تذكرني بانني لم اتناول طعاماً منذ إفطار الصباح ، فدخلت مطعماً لبيع المأكولات الخفيفة ، وتناولت قالبا من مكرونة القرن دون شهية ، ثم دخلت الحمام فأفزعني منظر وجهي في المرآة وقد انعكست فوقه تعاسة البشرية منذ بدء الخليقة . ازداد فزعني وأنا أعود إلى الشارع وأرى الاضواء قد بدأت تسطع فوق واجهات المحلات وتمنح فينيسيا وجهاً ليلياً أكثر جمالاً من وجهها النهاري . وارى الشمس قد بدأت تسحب خيوطها وتأذن بهبوط الظلام . سوف تمتليء المدينة بالاركان المظلمة الخاوية التي تغري المجرمين بارتكاب جرائمهم ، وما أسهل ان اصبح هذه الليلة الضحية التي تتحدث عنها اخبار الحوادث في اليوم التالي . يجب ان اعود حالا إلى الفندق ، فلا بد ان هناك مساحات من الفراغ والظلام ، يمكن للرجل ان يصطادني اثناء سيري بها لو رجعت متأخراً . أخرجت من جيبي بطاقة تحمل عنوان الفندق ، واتجهت والرجل يتبعني ، ابحث بين الارصفة عن مركب يذهب إلى هناك . لم اكن وانا فوق سطح المركب املك مزاجاً أتأمل به السحب المخضبة بشتى الألوان وما تركته من أثر فوق الماء ، ولم يكن يعني لي شيئاً مشهد الشمس الغاربة التي ذاب لونها في القباب البعيدة الحمراء التي تبدو مثل لوحات محفورة في الافق . ما كان يشغلني هو ان تتباطأ الشمس في غروبها وتمهلني قليلاً حتى اصل إلى الفندق . تنفست

الصعداء عندما رأيت الطريق إلى الفندق عامرا بالناس والاضواء والحياة ، ولكن الفندق نفسه كان هادئا ، صامتا ، لا صوت ولا صدى ، كأنه بيت الأشباح ، عدا موظف الاستقبال العجوز ، يقرأ كتابه صامتا ، جامدا كأنه تمثال من الشمع . فندق صغير بلا نجوم ، ولا صالة استقبال ولا مطعم ولا حانة ، عدا هذا الركن الذي يخصصونه لتقديم وجبة الإفطار . لمحت الشوك والملاعق والسكاكين فوق موائد الافطار ، فاتجهت إليها وتناولت سكيننا وضعته تحت سترتي . ثم أخذت المفتاح وصعدت سلما حلزونيا إلى غرفتي في الطابق الأعلى . فتحت الغرفة ووقفت عند الباب استرق السمع . كنت قد تركت الرجل واقفا امام الفندق ، ولكن من أدراني انه لم يرسل شريكا له يترصد لي داخل الغرفة . أضأت النور ودخلت أفتش تحت السرير وداخل دولاب الملابس وخلف باب الحمام لأرى إن كان أحد يختبئ هناك . كانت أصابعي قد تشنجت فوق مقبض السكين وأنا ارفعه امامي ، وكان مصباح الغرفة يصنع لي ظلالا تبدو كأنها مشهد من مشاهد الاثارة في افلام العنف والجريمة . أقفلت باب الغرفة بالمفتاح وتربسته برتاج داخلي ، ثم ذهبت إلى النافذة وألقيت نظرة على الجدار الخارجي ، كان الجدار ينغرس في ماء القناة ، أملس ، خاليا من المواسير والتواءات التي يمكن ان تساعد المجرمين علي التسلق إلى نافذتي . أقفلت خشب الشباك وتركت زجاجه مفتوحا ، لكي لا أسد كل منافذ الهواء ، وانتبهت إلى وجود طاولة وكُرسي عند زاوية قرب السرير ، فسحبتهما ووضعتهما خلف باب الغرفة . ووقفت أعاود النظر في السقف والجدران ، واضرب بقدمي الأرض المغطاة بالموكيت لأطمئن إلى سلامتها ، وانها خالية من أية عيوب يستغلها المجرمون في التسلل إلى الغرفة . ودون ان أستبدل ملابسني ، او اخلع حذائي ، جلست فوق السرير ، في حالة استنفار وبقظة ، مستعدا لالتقاط أصغر نأمة او حركة . كنت استطيع أن استنشق رائحة البحر والرطوبة ، وأسمع الغناء ذا الطبيعة الاوبرالية ، او العزف الذي يأتي من اماكن بعيدة ، كما

استطيع ان اسمع هدير محركات المراكب التي تسير في القناة اسفل النافذة . ما كان يهمني هو هذه الاصوات التي تتناهى بين الحين والآخر من داخل الفندق ، صوت باب يفتح ، او وقع اقدام تعبر الممر ، فاستنفر مداركي لأعرف مدى اقتراب هذه الاصوات من غرفتي . وبرغم الاصوات البعيدة والقريبة ، فان الذي يهيمن علي اجواء الغرفة ، في هذا الوقت المبكر من الليل ، هو الصمت . بل ان هذه الاصوات تجعل الصمت في الغرفة اكثر كثافة وقبحا . اردت ان ابحت في حقيبتني عن المذياع الصغير ، الذي لا أسافر إلا به ، ثم عدلت عن ذلك خشية ان يحجب عني صوت خطي المجرم اذا اقترب من بابي . بيني وبين مجئ الصباح ، زمن كأنة الأبد ، فكيف سأحتمل الانتظار وسط متاهة الليل ؟ وكيف ياترى يفعل السجناء الذين يقضون الاعوام في عتمة الأقبية والزنازين ؟ الكارثة انني هنا اسجن نفسي بنفسي ، وأمنعها من الاستمتاع بليل فينيسيا العامر بشتى فنون التسلية ، الأكثر من ذلك أنني مهدد بالقتل او ما هو اشر من القتل . انني لم اجرب شعورا كهذا من قبل . لقد أمضيت ليلة في الحجز ايام الصبا ، بسبب اشتراكي في مظاهرة طلابية ، ولعلني شعرت بالقهر والألم وانا ارى نفسي خلف القضبان . ولكن ما اشد الفرق بين الليلتين . كانت تلك الليلة برغم آلامها ، عرسا وطنيا نتيجة ما كنت ألقاه من تعاطف الحراس وزملاء الحجز ، وانتهت لتصبح رصيда في النضال أتباهى به فيما بعد . لم يكن هناك قاتل يتعقبني ، كما يحدث هذه الليلة ، التي ما اظن احدا سيحتسبها نضالا يضيفه إلي تاريخي الوطني . السكين في يدي ما يزال ، وانا لا أفعل شيئا سوى ان أحلق في الجدران العارية ، المطلية بلون رمادي يخفي آثار الرطوبة ، وصورة المسيح وهو ينام هائتا فوق صليبه ، معلقة فوق سريري ، والكتاب المقدس مربوط إلي الحائط بسلك معدني ملقى فوق الكوميدينو ، مكتوب باللاتينية التي لاسبيل إلى فك رموزها او الاستنجاد بصلاة من صلوات الرحمة التي يضمها الكتاب . وددت لو أطلق صرخة أمزق

بها سحب الضيق التي تملأ صدري ، وأرسلها عالية في جوف الليل لعل احدا من سكان كوكب الارض يأتي لنجدي . لقد قايت الامان داخل هذه الغرفة بالباحات الكبيرة والسماء المفتوحة وملذات الروح والجسد التي تقدمها فينيسيا لزبائن الليل . ولكن أين هو الأمان ؟ لابد لي من هواء استنشقه لكي لا أختنق . غامرت بفتح باب الشباك ووقفت املاً صدري بالهواء النظيف . تلاأت عناقيد الضوء في أجواء المدينة وانعكست ترقص رقصة مرحة فوق صفحة الماء . وتدافعت مع موجات الهواء اصوات المغنين والعازفين ، فلم يزدني المشهد البهيج إلا تعاسة . سمعت حركة في غرفة مجاورة ، ورأيت نافذة مضيئة تحاذي نافذتي ، فخشيت ان يباغتني منها المهاجمون . اقفلت الشباك وعدت إلى السرير أفكر في هواني وضعفي ، وأنا ارى نفسي محاصرا مثل فأر داخل المصيدة . لاشك ان الامر كان سيختلف كثيرا ، لو ان ما يحدث معي الآن ، حدث في مكان آخر اعرفه واعرف اهله ، ولكن ما حيلتي وانا أتعرض لهذا الاجترار على حياتي وحرיתי في مكان غريب مثل هذا المكان ، ومدينة تقع بأقصى أطراف الدنيا مثل هذه المدينة ، وفوق أرخبيل من الجزر تحاصره أربعة بحار، بعيدا عن اهلي وبيئتي وكل ما تألفت معه من بشر وأشياء . أمامي أكثر من عشر ساعات أخرى قبل ان ييزغ ضوء النهار . فهل أبقى قابعا في هذا المربع الاسممتي لا أفعل شيئا سوى الانتظار والترقب وممارسة طقوس الخوف بما فيها ترديد بعض الأدعية والتسابيح . هل أغامر الآن واترك الغرفة عائدا إلى اضواء وهواء وزحام الشوارع ، حتى لو كان الثمن مواجهة مرعبة مع القاتل . ولكي لا أصاب بالجنون ، أخرجت المذياع ، باحثا عن محطة عربية . أحسست بشئ من الارتياح وانا أسمع صوت عبد الوهاب يغني وسط العواصف التي تصنعها موجات إرسال بعيدة :

— انا والعذاب وهواك

هذه أغنية رجل يتعذب وحيدا ، ولكن ما أعظم الفرق بين عذابه وعذابي .
يشرد فكري مع كلمات الاغنية ، يبحث في تهويلاته عن فسحة حرية خارج هذه
الغرفة وخارج هذه المدينة ورطانتها الأجنبية ، يلعب لعبة تعويضية تبعده قليلاً
عن لعبة الموت هذه . اشتات من ذكريات لا يجمعها نسق ولا منطق . زوبعة
من الغبار تنشأ نتيجة عراقك بيني وبين عدد من الصبيان ترصدوا لي في ساحة
القرية . كان الخوف يشل قدرتي علي رد اللكمات والصفعات ، فكنت أصرخ
وأرفع ذراعي لأحتمي بهما من شراسة المهاجمين . ولكن يدا تأتي لتنتزعني من
وسط العراك . يد رجل كبير جاء يطرد الأولاد وينقذني . سطل من الماء تدلقه
إحدى نساء العائلة وراء السيارة التي تنقلني من البيت إلى المطار ، جلبا للفلأ
الحسن الذي سيعيدني سالماً إلى البيت . انا والعذاب وهواك . انتهت الأغنية
ولكن اصداها ظلت تتردد في ذهني . طائرة تطفو فوق أمواج السحب ،
ومضيفة تأتي باسمه ، لتحيتي ، لأنها ألقت وجهي لكثرة ما أقوم به من رحلات
صحفية :

- ماذا ستكتب في رسالتك من إيطاليا؟

- وهل هناك ما هو أكثر إثارة من المافيا؟ سأكتب عنها طبعاً .

قلت ذلك مازحاً ، وهأنا الآن وسط مشهد من المشاهد التي لا نراها الا في
أشرطة العنف التي تتحدث عن المافيا . انا والعذاب . . ولا أدري بعد ذلك
كيف استطعت وأنا في هذه الحالة من التوتر والفرع ، ان انتقل من كوابيس
اليقظة ، إلى كوابيس النوم . كانت الغرفة قد بدأت تعج برجال لا ملامح لهم .
اشباح تقتحم الباب والشباك ، وتنبثق من ارض الغرفة ، وتهبط من السقف
وتصنع دائرة حولي . يتجمد الدم في عروقي وأنا اراها تقترب مني ، وتمد نحوي
اذرعها الطويلة التي يغطيها الوبر الكثيف ، واصابعها التي تشبه المخالب ،
وقبل ان تطبق على عنقي سمعت طرقا على الباب ، فنهضت من رقادي

مفزوعا ، أبحث عن السكين الذي سقط اثناء النوم ، تناولته وأنا اهرع إلى الباب والتصق به اسأل من الطارق .

ـ بونجورنو سينيور .

كانت عاملة النظافة تبحث عن غرفة لتنظيفها .

ـ اونا مومينتو سيبورا .

لحظة ايتها السيدة الايطالية التي لا تعلم رعب هذه الحلقة من حلقات الجحيم التي احاطت بي . وقفت برهة انفض عن رأسي كوابيس الليل ، قبل ان افتح الشباك وأرى النهار ينشر غلالات ضوءه فوق فينيسيا التي بدت تحت أبخرة الصباح وديعة وهادئة وغامضة . ازحت الطاولة والكرسي من خلف الباب واعدتهما إلي مكانهما قرب السرير ، وهبطت إلى قاعة الافطار حيث يجلس بعض زبائن الفندق . أقتحمتهم بنظراتي بحثا عن الرجل الذي يطاردني ، وعندما لم أجده ، جلست . سأتدبر وسيلة لحجز مقعد في أول طائرة تقلني إلى مطار روما ومنه إلى طرابلس ، لن أقضي ليلة رعب اخرى في هذه المدينة . كانت التذكرة التي جئت بها من روما ، تذكرة أسبوعية مخفضة لا تتيح لصاحبها العودة قبل انقضاء عطلة الاسبوع ، أي بعد ثلاثة ايام ، ولكن النقود التي تبقت معي سوف تسعفني لدفع الفرق او شراء تذكرة جديدة . أكملت افطاري ، واتجهت إلى باب الفندق . لاشك انه يقف الآن بانتظاري ، بملاحه الابليسية المحنطة وعينه الخفيفتين . لا أدري كيف قضى ليلته ، فلعله قضاها واقفا ، أو نائما وهو واقف . ما عساه يفعل وهو يراني بعد قليل أحمل حقيتي وأغادر المدينة . لعله سيسرع بإنجاز مهمته قبل ان يطير الصيد من شبابه . استعذت بالله من شياطين الأرض والسماء ، ووقفت انظر إلى الشارع وأرى جموع الناس الذين أيقظهم الصباح ودفع بهم خارج فنادقهم وبيوتهم ، يستأنفون نشاطهم ويمضون في تنفيذ برامجهم ، فأحس بالغبن لأنني حرمت من هذه الحرية

البسيطة التي يتمتع بها بقية الناس . اكتشفت انني مازلت احمل السكين معي ، اخبئه في جيب سترتي ، فليتنى حقا اجد الشجاعة لغرسه في صدر هذا الرجل فور أن يأتي لمهاجمتي . لم أستطع ان اراه من موقعي امام الفندق ، فذهبت أبحث عنه خلف الاعمدة والاقواس القريبة واطوف بعدد من الاكشاك التي تتناثر علي الارصفة المقابلة تبيع الصحف والورود والهدايا ، دون ان اعثر عليه . لقد لاحقني طوال نهار الامس ، حتى اوصلني إلى باب الفندق وبقي متكئا على هذا العمود الرخامي ينتظرني ، فكيف أصدق انه تخلى عن مطاردتي . لعله اكتفى بمعرفة الفندق الذي اقيم فيه ، وأرجأ الملاحقة إلى وقت آخر . او لعله استأجر غرفة في الفندق قبالة غرفتي ، وانتظر حتى خرجت لياشر تفتيشها ثم يلحق بي . رجعت مسرعا إلى الفندق ، وصعدت ثانية إلى الغرفة ، وعندما لم اجد له اثرا ، ذهبت ابحث عن وكالة السفر ، وانا اتلفت ورائي خشية ان يظهر فجأة . ولكن الرجل لا يظهر وقلبي لا يطمئن . قرأت لافتة تشير إلى وكالة السفر ، فكدت أعبرها دون ان أعتنى بالدخول اليها . لماذا استعجل مغادرة المدينة اذا كان الرجل حقا قد اختفى . رأيت من خلال الواجهة الزجاجية وجه فتاة تجلس في المكتب بمفردها ، فأغراني ذلك باقتحام خلوتها . قدمت لها التذكرة مبديا رغبتني في حجز مقعد على اول طائرة إلى روما . قالت وهي تضرب على ازرار الحاسب الآلي :

- هل تجد فينيسيا مضجرة إلى هذا الحد .

لكنها الايطالية تمنح الكلمات الانجليزية رنينا انشويا عذبا ومغريا ، خاصة هذه الجملة الاستفزازية الجميلة التي تتهمني بأن لي قلبا حجرييا لا يقوى على استيعاب فيض الجمال الذي يشع من حجارة مدينتها . كيف اشرح لها ان قلبا حجرييا آخر هو الذي اقتحم حياقي ، وانزل بي سخطا ونكدا يرغماني على الرحيل . وقفت صامتا انتظر ان تخبرني بفارق الثمن الذي سأدفعه . انها تميل

إلى البدانة قليلا ، ولعلها ستكون اكثر بدانة عندما تقف ويظهر نصفها المختفي خلف المكتب العالي ، ولكن وجهها المستدير يفيض نضارة وبهاء .
قلت وانا املاً البصر من ملامح وجهها المتورد المضيئ :

- خطأي انني جئت إلى فينيسيا بمفردي ، ولم اصطحب صديقتي معي .

ابتسمت دون ان ترفع عينيها عن ازرار الحاسب :

- سيكلفك هذا التغيير مبلغا كبيرا . لو كنت مكانك لأبقيت على الحجز كما هو .

كان لابد ان أغامر باستئاف الحديث الحميمي ، وأصل إلى النتيجة التي اريدها قبل ان يداهمننا زبون آخر تنشغل به عني . بالغت في وصف ما أصابني من ضجر ، وما أحسست به من غربة لم تفلح كل مظاهر الجمال في مدينتها من التخفيف منها ، لانني لا اجد احدا يشاركني الاستمتاع بهذا الجمال . قلت لها ان اكثر لحظاتي تعاسة عندما اجد نفسي اجلس في المقهى او المطعم وحيدا واتناول وجبة الافطار او الغداء او العشاء دون انيس ، فهو امر يتناقض مع طبيعتي التي تنفر من الوحدة . وأعربت لها عن رغبتني في البقاء اياما اخرى لو ضمنت وجود انسان يبادلني الحديث من حين لآخر . كنت قد حددت هدفي الذي يتركز في انتزاع موعد للقاءها . لم يكن دافعي فقط انها فتاة بالغة البهاء والعدوبة . كان الدافع الاكبر ، هو ذلك الرجل الذي يطاردني ، فهو وان اختفي عني هذه اللحظة ، فلا أحد يضمن انه لن يظهر في اية لحظة . ووجود انسان معي ، امرأة كان او رجلا ، سيمنحني قدرا من الامان ، ويتيح لي ان اواجه الرجل متسلحا بهذه العلاقة . أفصححت لها عما اريد ، لكنها راوغت وماطلت ونصحتني بالانضمام إلى رحلات داخل المدينة تنظمها المكاتب السياحية ، حيث سيتاح لي التعرف برفاق الرحلة وتبادل الحديث معهم ومع المرشدين السياحيين . وكنت ارد عليها بأن طبيعتي الحرة تكره الجداول التي

تحدد مواعيد الحضور والانصراف وأوقات النوم واليقظة والعلاقات الرسمية
المرسومة بالمساطر، وانني لا ابحث سوى عن انسان اتآلف معه واتبادل وياه
الحديث في المقهى لبعض الوقت وينتهي الامر. وبرغم انها لم تعدي بغير لقاء
قصير اثناء فسحة الظهيرة في اليوم التالي، فان هذا الوعد كان كافيا لان يزرع في
دمي شحنة من النشاط والحيوية. لم اعد انسانا وحيدا. ثمة امرأة، لها وجه
مرسوم بأبهى الالوان، سألتقي بها غداً، وفي مقهى فلوريان الذي شهد قصصا
عاطفية احتفى بها تاريخ الادب والفن. لحظة خاطفة من البهجة، أعادتني
إلى جمال وعذوبة اللحظات الأولى للقائي بهذه المدينة التي احبها القلب.
ولكن التفاتة صغيرة تكفلت بطرد كل مشاعر الفرح التي تدافعت مع موجات
الهواء الربيعي إلى صدري. رأيت في البعيد، الرجل الذي يطاردني، قادما
نحوي، وقد ارتدى هذه المرة قبعة تنكفي فوق وجهه حتى غابت نصف ملامح
الوجه. تشنجت اصابعي على مقبض السكين القابع في جيبي وانا أراه يندفع
نحوي. ثم رأيت نفسي، في التفاتة مباغته، امسك عنقه بيدي قبل ان
يباغطني، وادفع باليد الاخرى، السكين في صدره. دفعته بكل ما املك من
غل وحقد وغضب، حتى غاص بين اضلعه، لينشق دمه ملطخا ملابسه
وملابسي. اغمضت عيني وفتحتهما، وحركت رأسي بعصبية انفض هذا
الكابوس الذي داهمني. رأيت الرجل يواصل سيره بمحاذاتي، وهو يلتفت
باستغراب نحوي. لم يكن هو ذات الرجل. هل لابد ان اكون قاتلا او قتيلا.
هل حقا اختفى من حياتي ليركني اصارع شبحا لا وجود له الا في ذهني،
واقوم بجريمة قتل وهمية تعويضا عن خيبتني في التصدي له اثناء المواجهة
الحقيقية. ليتني لم اقع تحت اغواء الموظفة الحسنة، ودفعت الثمن الذي
تريده، ورحلت لأضمن لنفسي النجاة من الهلاك. كيف لي ان اتحرر من هذه
المخاوف، أو أصدق ان المطاردة قد انتهت. لعله كان يظنني ثريا من اثرياء
النفط وما ان رأى فندق الفقير حتى أدرك حقيقة امري وانصرف عني إلى

هدف آخر. أليس هذا تفسيراً معقولاً ؟ فلأتححر إذن من سطوة هذا الشبح ،
ولأواصل شعائر حجي إلى فينيسيا . ها هو اعظم ما ابدعه الانسان مرسوم فوق
الاقمشة ومنقوش فوق الحجارة والاحشاب ، ولا يقتضي أن اذهب باحثاً عنه ،
لأنه يعترضني اينما اتجهت . لأقف ادن متبتلاً خاشعاً امام هذا الباب الاثري
لكنييسة القديسة هيلانه ، أتأمل النقوش المحفورة فوق الخشب ، بما تحمله من
رموز ودلالات ، وما تبعثه في النفس من رؤى ومشاعر . لأفعل ذلك دون أن
أنسى حذري ، أو أخطئ فامنح فكري كله للنقوش والتصاوير ، اذ لعل
العصابة التي ينتمي اليها الرجل ، كلفت زميلاً له ، يستخدم اسلوباً اكثر تنكراً
ومراوغة لمطاردي . نظرت إلى وجوه الناس الذين يحفل بهم الشارع ، بدا لي كأن
هؤلاء الناس جميعاً يريدون بي شراً . وهارباً من مشاعر الخوف ، وظلال ذلك
الشبح ، مضيت أضرب في أزقة وحواري فينيسيا ، تائها لا أعرف لي هدفاً .
هناك اكثر من مائة وستين قناة لعلني عبرت كل قناطرها دون أن يفارقني هذا
الاحساس بالوحشة ، الذي لايزيده ضجيج السائحين وغناء الملاحين الا كثافة
وعمقا . احسست بالتعب ، فاخترت مقعداً في منطقة مشمسة ورميت عظامي
فوقه . كنت قد اشتريت نشرة محلية باللغة الانجليزية ، بعد أن أثارت فضولي
صورة تملأ الصفحة الاولى لزعيم سياسي من بلاد الشرق الاوسط . قرأت الخبر
الذي يتصل بالصورة فإذا به عن زيارة قام بها هذا الرجل إلى فينيسيا نهار
الامس . وازافت النشرة بان السلطات الامنية في المدينة اتخذت اجراء وقائياً
بهذه المناسبة ، ووضعت كل الشخصيات المشبوهة القادمة من البلاد العربية
تحت المراقبة الصارمة . ظننت ان هذه المعلومة التي تقدم تفسيراً لمطاردة الامس
سوف تعيد إلى نفسي الصفاء الذي تنشده ، ولكن لامر ما ، وجدت ان حالة
التبرم والانقباض لا تفارقني . لقد عشت نهاراً وليلة مع الاثارة والرعب بسبب
تافه لا اهمية له . وهأنذا اعود وجهها مجهولاً في هذا الزحام ، لا اعرف احداً ولا
احد يعرفني ، غير هذه السلطات الامنية التي نظرت في اوراق القادمين إلى

المدينة ، ووجدت ان اسمي يستحق ان يكون اسما لشخصية مشبوهة تهدد الامن ، فيضعونها تحت المراقبة . ألم يكن بإمكان هذه السلطات - قلت لنفسى - ان تختار رقبيا اقل جلافة وصفافة ، ولا يحمل ملامح جامدة جهود الاموات . ما أقسى هذه الطريقة التي تعاملين بها عشاقك أيتها الجميلة فينيسيا ، ولكن من كان قارئاً للأدب مثلي ، سوف لا يستغرب هذا منك وقد رأى المصير الذي لاقاه عطيل علي يدك .

ووفاء لهذا العشق القديم الذي بدأ يتبخر ويتلاشى ، ذهبت ابحت عن شئ يحرك الفتور الذي اصاب مشاعري ، خلف بوابات متاحفها وقصورها ، بدلا من الطواف بجدرانها الخارجية . دخلت قصر الادواج ، وصعدت السلم الاثريّة ذات الفخامة والبهاء ، ومرقت تحت الاقواس التي تنتمي إلى عصور المحاربين الكبار ، وشاهدت تاريخ المدينة مرسوما على اللوحات ، هزائم وانتصارات ، ومعارك مع البيزنطيين والعثمانيين والنمساويين والممالك الايطالية المجاورة ، ومشاركة فاعلة في الحروب الصليبية . وكانت ذاكرتي تهرب إلى مسرحيات المآسي ومشاهدها التي تقتبس احداثا دارت في هذا القصر ، فتوقظ في نفسي إحساسا بالفرع من هذه الغرف الواسعة ، والاسقف المهولة العالية ، والجدران التي يغلفها غبار الزمان . ذهبت إلى اكبر متاحف المدينة ، ورأيت تيجان الملوك وقلائد الذهب والياقوت والألماس ، فانصرف ذهني يبحث عن مصير الرؤوس التي كانت تعتمر بها ، والأعناق والصدور التي كانت تزهى بها . وقفت طويلا امام اللوحات التي رسمها فنانون عصر النهضة بجلالها الكلاسي ، وتأملت تلك العوالم الروحية بشفافيتها ومثاليته كما بدت في الايقونات الملونة ، وصور العذراء ، وهالات النور فوق رؤوس القديسين . ومع ذلك فإن الشعور لا يفارقني ، بان كل ما أراه الآن سبق ان رأيته وعرفته ، ولم يعد يثير في نفسي اي إحساس بالدهشة او الانبهار . كل هذه الابراج والقباب والتمائيل والتساوير ، كل هذه الحجارة والاعمدة والاقواس وابواب الخشب

والحديد، التي تحمل كشافة التاريخ، وثرء الازمنة القديمة، لم تعد تعني بالنسبة لي شيئاً جديد أو مثيراً. عدت إلى الباحات والقناطر وارصفة الموانئ الصغيرة، ورأيت مظاهر الحياة المليئة بالمرح، فدا لي انني لا اري سوى المظهر الخادع البراق، الذي يخفي محتوى أكثر تعتياً. ان فينيسيا لا تظهر لزائرها الاماكن التي تدفن فيها موتاهها ولا الملاجئ التي تضم المعتوهين وضحايا الامراض العقلية من رجالها ونسائها، ومعنى ذلك ان لديها اشياء اخري تخفيها، لكي لا يري الزائر غير هذا الوجه العامر بالأصباغ. صارت عيناى لا تلتقطان الا مشاهد المشردين من ضحايا الشراب الذين يتكومون في الاركان المعتمة، والاعشاب الميتة التي يدفع بها الماء فتصنع اكداس العفونة في نتوءات وشقوق الارصفة. وذاكرتي لا تستحضر الا الروايات التي تتحدث عن مجرمي ولصوص وقراصنة فينيسيا، بل إن كازانوفاً نفسه، الذي باعته فينيسيا للعالم، باعتباره العاشق الاسطوري، لم يكن الا جاسوساً رخيصاً. حتى هذه الفتاة، التي تعري ساقها وصدرها وكثفها، وتستعرض امام الناس سحر انوثتها، من قال انها لا تحمل مرضاً جنسياً. أليست فينيسيا هي المدينة التي يقصدها الاغنياء من ضحايا هذه الامراض لقضاء ايامهم الاخيرة.

كنت اعرف انني اقسو على فينيسيا، ولا أستعرض من دفتها الكثير الالوان، إلا صفحاته السوداء، التي أضيف اليها سواداً تفيض به روعي. انني بذلك أبادلها انتقاماً بانتقام، لكي اتحرر قليلاً من عبء هذا الظلم الذي ألحقته بي.

عندما انتهى النهار وعدت إلى غرفتي، كنت في حالة من الإنهاك أسلمتني إلى نوم لم افق منه الا في ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي. اغتسلت وتناولت افطاري على مهل، دون ان أجدر رغبة تدفعني إلى معاودة السياحة في فينيسيا، وكأنني نفضت يدي من هذه المدينة نهائياً. كدت انسى مواعيدي مع فتاة الوكالة، بعد ان احتسبتها جزءاً من هذه المدينة التي طرحتها من حسابي.

وبدافع اللياقة وحدها ذهبت إلى مقهى فلوريان، وإلى طاولة في الفناء الخارجي، حيث جلست بانتظارها. تحف بي رفرفة اجنحة الحمام وانغام موسيقي فاجنر، وتملأ الفضاء من حولي، فتجعلني مكتفياً بوحدي. رأيته مقبلة، فوقفت لاستقبالها، ولكن هفهة الثوب الزمردي، ونضارة الوجه، وعذوبة الصوت الذي ألقى التحية، لم تستطع إخفاء بدانة الجسم بطياته الكثيرة عند الحاصرتين. طلبت لها شايًا بالحليب مصحوبًا بقطع الجاتوه، احتفالاً بقدومها، وتعويضاً لها عن هذا الفتور الذي أحس به نحوها. وتبادلت معها كلمات التحية والمجاملة، ثم لم أجد شيئاً أقوله لها. لم تظفر مني بغير إجابات مقتضبة على أسئلتها التي تحاول مغالبة الصمت، حول مشاهداتي في فينيسيا وانطباعي الأول عنها. وكان لأبد لهذا الصمت أن ينتهي بانتهاء اللقاء ذاته. ذهبت امرأة الوكالة لكي تحفي بدانة جسمها خلف المكتب، وعدت وجهاً مجهولاً في زحام فينيسيا، لا أدري ماذا أفعل بالوقت الذي تبقى معي، ولا أعرف علة لهذه التقلبات التي تطرأ على عقلي وقلبي، وتجعلني متبرماً بالمكان الذي عشت عمراً أحلم بزيارته، ولا سبب نفوري من هذه المرأة ذات الوجه المضئ التي اشفقت على غربتي فجاءت لمؤانستي. كل ما أريده الآن، هو أن أعود إلى غرفتي وأنام نوماً طويلاً لا أستيقظ منه إلا عندما يحين موعد ذهابي إلى المطار. وسأكون سعيداً وأنا أعاود فينيسيا، التي اعتبرتها شخصاً مشبوهاً يهدد أمنها، والتي لن أحمل من ذكرياتها، سوى ذكرى هذا الرجل، ذي الملامح المحنطة، الذي أرسلته ورائي ذات مساء.

تشارلز وديانا

بدأت علاقتي الصامتة، البعيدة، بالأمير تشارلز منذ أن وضع دبلّة الخطوبة في يد الليدي ديانا سبنسر. اختياره العبقري لهذه الفتاة بالذات هو الذي أخرجني من عزلتي، وأعادني إلى قراءة الصحف ومشاهدة التلفاز، وجعلني أكرس أغلب وقتي للاهتمام بالأمير تشارلز وخطيبته الرائعة. فثمة شيء مشترك بيني وبينه اكتشفته نتيجة هذه الخطوبة، وسأفصح عنه دون إبطاء. سنوات عديدة قبل ميلاد الليدي ديانا، وقع في يدي كتاب يضم مستحبات من قصائد الحب، وعلى غلاف هذا الكتاب رسم لوجه فتاة، يطابق مطابقة كاملة وجه هذه الفتاة التي أخرجها الأمير تشارلز من عالمها المغمور، إلى عالم الشهرة والأضواء. كان رسماً بسيطاً بلا ألوان، ولا زخرفية، ولا تفاصيل تحيط بالوجه. مجرد خطوط سوداء فوق بياض الورق، تظهر وجهها تتألق فيه العينان تألقاً مبهجاً، وهما تنظران إلى البعيد، وتنطقان بمعاني البراءة الممزوجة بكبرياء ملكي.

وتضافرت قصائد الحب في الديوان، مع صبوات الشباب الأولى، مع تخطيطات ذلك الرسام المجهول، لتصنع لي حلماً، صار مع الأيام يكبر ويتنامى، ويأخذ شكل امرأة، تمنحها المخيلة صوتاً وعطراً ولونا، وتمنحها حياة وحركة ودفئاً، وتغني صورتها بالايحاءات والايقاعات والدوائر الانشوية اللذيذة، فإذا بها تحتل كل مساحات القلب الفارغة، وإذا بي غارق في حبها، لا أرى في عوالم النوم واليقظة امرأة سواها.

هكذا وقعت منذ صباي ، في شباك ذلك الرسم البسيط الساذج ، الذي رسمه الفنان لوجه ديانا قبل ان تولد ، والذي لم أستطع الفكاك منه بعد ذلك ابدا . فقد أصبحت حياتي منذ ذلك اليوم ، رحلة بحث متواصل ، عن فتاة تشبه ذلك الرسم .

التقيت بنساء كثيرات ، وسعيت لإنشاء علاقات حب مع بعضهن ، ولكن تلك العلاقات ، كانت سرعان ما تصطدم بصورة المرأة المثال التي تشبه امرأة الصورة . ولم يكن اختياري لمهنة صحفي متجول ، إلا لأن هذه المهنة تتيح لي فرصة البحث عنها في اماكن اخرى من العالم ، بعد ان فشلت في العثور عليها بين نساء مدينتي . طفت بلاد الشرق والغرب ، وتهيأ لي في مناسبات كثيرة انني رأيته في زحام احدى الحفلات ، او واقفة باحدى محطات القطار ، او تقرأ كتابا تحت مسقط الضوء في نافذة بعيدة ، فكنت أتحمل صنوف المتاعب من أجل ان اقرب منها ، انتظرها في المحطة ، او أترصد لها في مواجهة تلك النافذة ، او أرتاد تلك المحافل العامة ، حتى أراها عن قرب ، واكتشف انها ليست هي ، فأتركها وأعاود البحث في اماكن اخرى ، وارصفة أخرى .

وأدركتني الكهولة على حين غفلة ، فإذا بي مازلت عازبا ، لا اجني من هذا البحث سوى حصاد الالم والخيبة ، فتوقفت عن ملاحقة الشمس في دورانها من شرق العالم إلى غربه ، ورجعت يائسا إلى داري ، وقد صارت العزوبية اسلوب حياة ، تآلفت معه ، ورضيت به ، ولم اعد قادرا علي تغييره ، مدركا ان امرأة الحلم التي أشقيت نفسي بالبحث عنها ، ستبقى على الدوام مقيمة في غرف الحلم والأسطورة .

وجاءت مفاجأة العمر ، التي أشعلت جمر الإثارة في حياتي من جديد ، عندما اشرق وجه ديانا فوق صفحات الجرائد وشاشات التلفاز ، ليثبت لي ان لامرأة الحلم تجسيدا عبقريا في واقع الحياة ، فهي كما رأيته منذ عقود اربعة

مضت ، فوق غلاف كتاب شعري . راقبتها وهي بصحبة خطيبها ، تمشي وتبتسم وتتكلم ، فلم أر الا ما كنت أراه في مخيلتي على مدى اربعين عاما . لقد عشت كل هذه الاعوام ، بصحبة هذه الابتسامة ، واحسست بمذاقها اللذيذ في ريقى ، ورأيت سحر هاتين العينين ، بما فيهما من ألق ينتمي إلى النجوم ، لا تزيده الرموش في حركتها السريعة الا إبهارا للناظرين ، وانسكب هذا الصوت العندليبي ، رحيقا نديا في مهجتي . إنها هي . الانف والفم والعينان ، الشعر والعنق والاذنان ، الاصابع والذراعان ، الصدر والخصر والساقان ، كل هذا الضياء ، وهذه الشفافية ، وهذا الحضور المخملي الملى بالكبرياء ، وهذه البراءة التي تنتمي لكائنات السماء ، تماما ، كما حملتها في ذاكرتي ، وعشت مسكونا بها طوال سنوات عمري ، بذات المقاييس التي رسمها رسام عبقرى لتلائم قلبي .

نعم . لقد تأخرت اربعين عاما عن الظهور . ولكنني لن اتأسف لذلك . بل أحمد الله انها ظهرت أخيرا ، لأعرف على وجه اليقين ان حلمي لم يكن هلوسة وجنونا . وشكرا لهذا الأمير الوسيم ، الذي اهتدى إليها ، والذي شاءت الاقدار ، ان يتفق ذوقه مع ذوقي ، وحسه الجمالي مع حسني ، واختياره مع ما اختاره قلبي . ولابد ان موقعه كأمر ، يحظى بحب الناس وإقبال الدنيا هو الذي جعله أكثر توفيقا مني في العثور على تلك الفتاة التي بددت العمر كله بحثا عنها ، دون أن اهتدي إليها . فله مني بالغ الامتنان والعرفان بالجميل .

هكذا بدأت علاقتي بالامير الذي اعتبرته شقيقا لروحي ، وصرت اتبع أخباره ، وأقرأ كل شئ عنه حتي وانا في موطني البعيد عن موطنه ، واتباع تطور العلاقة بينه وبين خطيبته ، وجعلت من يوم زفافه العظيم يوم عيد لي ، حرصت على حضوره في لندن ، واكرتيت غرفة في فندق يحاذي القصر الملكي لأكون قريبا من مركز الاحداث . وكانت فرحتي تنقلني ، إلى الشارع ، اشارك الناس الرقص والغناء وتبادل الأنخاب ومراقبة مواكب العرس الملكي ، ثم تعيدني إلى

الغرفة لأتباع الصورة التي تنقلها عدسات التصوير من كنيسة القديس بولس ، للحظة الزفاف ، ثم اخرج عائدا إلى الشارع وإلى الوقوف امام قصر باكينجهام ، عندما علمت ان الامير والاميرة سيخرجان إلى شرفاته لتحية الجمهور . ووقفت مع الناس أنظر إلى الشرفة العالية وقد شملتني حالة من الانتشاء والذهول ، وانا أرى الحلم الذي اصبحت واقعا ، والاميرة التي هبطت من قصر الاساطير ، وبجوارها الامير في كامل الابهة الملكية ، يلوحان بايديهما إلى الجمهور . صرت اشق الصفوف ، وادفع الناس شمالا ويمينا ، لأحتل موقعا متقدما أرى منه الصورة عن قرب . وقفت املاً البصر من هذا المشهد الذي امتزجت فيه الحقيقة بالخيال ، ورأيت صورتي عندما كنت شابا في صورة الامير الآن ، فتمنيت ان يأخذها الآن بين احضانه ويقبلها . سيكون ذلك شيئا لا سابقة له في تاريخ الاعراس الملكية ، ولكنها رغبة سيطرت على كل جوارحي ، ودفعت بي لأن اطلب من شقيق روحي ، الامير تشارلز ، هذا الطلب الغريب ، وهو ان يقبلها الآن وفي هذه اللحظة من اجلي ، لكي تكتمل بذلك سعادي . ولذهولي الشديد ، وجدت ان الامير ، ودون تردد او إبطاء ، يستجيب لطلبي ، فيحيط بذراعه خصر الاميرة ، ويحني وجهه فوق وجهها ، لترفع إليه الاميرة ذلك الثغر الجميل ، فيطبع فوقه قبلة ، نقلتها عدسات المصورين إلى اركان الارض الأربعة . واحسست لحظتها بان سعادة الامير هي سعادي ، وان علاقتي به ، نتيجة هذا التواصل الروحي بيننا ، والذي شهد اعظم اختبار له هذه اللحظة ، قد ختمت باختام المودة الصادقة التي جعلت منها علاقة قدر ومصير .

وعندما بدأت اتعرف على أفكاره وآرائه في القضايا العامة ، اكتشفت تماثلا غريبا بين افكاره وافكاري ، واكثر من ذلك فقد وجدت ان ما يقوله حول قضايا المعمار الحديث ، والمحافظة على جمال الريف ، وحديثه عن المتاحف والمكتبات ، يعطي صوتا ومعنى ، وشكلا ومضمونا ، لكل الاحاسيس

الغامضة التي لم اكن اعطني بفحصها ولم أمنحها نسقا متكاملًا الا من خلال احاديثه ، وكأنه يتكلم بالنيابة عني . كنت اسمعه وهو يتحدث بتلك البلاغة اللغوية ، وذلك الصوت العميق العامر بالصدق والحرارة ، فأحس بالفخر لهذا التماثل بيننا . وكنت أحيانا أهمس بتعليق يحمل التشجيع ، قائلا « احسنت القول يا تشارلز » او « هكذا يجب ان ترد عليهم » . وكنت ذات مساء ارقب حفلا ينقل مباشرة على الهواء ، وكانت صحف ذلك اليوم قد نشرت بعض الانتقادات لتدخله في امور تخص الدولة ، فوجدت نفسي غاضبا ، اقول له ، وقبل ان يبدأ الحديث :

- ارجوك لاتخذني ، ولا تخضع لابتزازهم . قل لهم بالحرف الواحد ، انهم اذا ارادوا لك ان تبقى عاطلا لا تفعل شيئا ، فانك تفضل ان ترحل نهائيا عن هذه البلاد .

ولم تكن مفاجأة لي ، ان أرى الامير علي شاشة التلفاز ، يتجه من فوره إلى المنصة ، ويعيد قول نفس الكلمات التي قلتها له . لم يدهشني ذلك ، فقد صار هذا التواصل بيني وبينه مسألة لا تثير دهشتي ولا ذهولي .

وفي مكان القلب من هذه الانشطة التي يقوم بها الامير ، والتي تستحوذ علي اهتمامي ، كانت علاقته بالاميرة ديانا ، فكنت اتابع بمشاعر الحب والفرح ، صفاء العلاقة الزوجية بينهما ، وما يحيط بهما من محبة الناس واهتمام الرأي العام ، وأغبط نفسي ، لانني اعيش في عصر الثورة الإعلامية ، التي سخرت وسائلها لرصد حياتهما رصداً دقيقا ودءوبا ، وأتاحت لي ان اعرف كل شئ عنهما ، وكأنني اعيش معهما صباح مساء . ولان الامراء الذين سيعتلون العرش قريبا ، يحبون ان تزدهي بيوتهم بأولياء العهد ، فقد كنت سعيدا لسعادتهما ، ونجاح زواجهما ، الذي حبه الاقدار السعيدة ، بمجئ طفلي علي التوالي يكملان صورة العائلة الملكية الهائلة .

ومن خلال المتابعة المستمرة لحياة الأمير والاميرة، بدأت ألاحظ شيئاً يتصل بالأميرة ديانا، اثار قلقي . ان تلك الصبية، العامرة بالنشاط والحيوية، الملائكية الملامح، التي تضع عينيها في الارض حياء وخجلاً، قد بدأت تنضج ويطرأ على صورتها تغيير طفيف جاء نتيجة التقدم في العمر والتجربة . صارت تلك الصبية، اكثر جرأة وهي تحاطب الغرباء، ورموش عينيها اكثر ثباتاً، ونظرتها التي تسبح في الفضاء اللانهائي، اكثر تحديدا ومعرفة لما تريد . كنت اعرف جوانب القصور في نظرتي، والتي مبعثها ان الصورة التي في ذهني لامرأة الحلم صورة ثابتة لا تتغير، أشبه بصورة نحفظ بها في ألبوم الذكريات لإنسان عزيز . ولهذا فقد صرت التقط أي تغيير يطرأ على الصورة بشئ من الحذر والخوف، محاولاً ان أصل إلى درجة من المصالحة بين واقع الحياة، وبين الصورة المحفورة على جدران الذاكرة . كيف يمكن ان نحافظ على الحبيبة التي اختارها القلب، كما هي في نضارتها وحياتها، وبراعة الفراديس التي تسكن عينيها، برغم لعبة الزمن ؟ .

لقد أقلقني ما رأيته، وكان أخشى ما أخشاه ان ينتقل هذا القلق الذي أحس به إلى الأمير تشارلز . انني لا اريد له ذلك . اريده ان يكون اكثر عافية مني، وأكثر وعياً بخطورة هذه الافكار التي جاءت نتيجة تثبيت ذهني يعكس نفسية مغدورة، اصابها الاذى من حركة الزمن ودورانه الدائم السريع . ولكن ماذا أفعل لخط التواصل الروحي المفتوح بيني وبينه . يجب ان احاول السيطرة على مشاعري مراعاة لخاطره، ولكي لا أظلم حبا نمت وتطور تحت رعايتي . صرت وانا اقرأ اخباراً عن طردها للعاملين بقصرها، او أسمع تعليقا قاسيا تنسبه الصحف اليها . اقول إن ذلك لا يمكن ان يحدث لانه لا يتفق مع صفاء وبراعة الانثى التي عرفتها من قبل ان تولد، بل ولماذا لا اقول، لا يتفق مع السذاجة الجميلة، التي تميزت بها امرأة احلامي . وكنت اقول وانا أرى وجهها المستدير يفقد شيئاً من استدارته ليكتسب طولاً لم يكن فيه، إن ذلك جاء

بسبب الحمل ، ثم ينتهي الحمل فأرى ان الاستدارة التي تنتمي لطفولية ملامحها قد انتهت لانها الآن اصبحت ديانا الزوجة ، وديانا الام ، وديانا الاميرة ذات المسؤوليات العامة .

وبدأت عاطفتي نحوها ، ولاول مرة منذ ان رأيت صورتها فوق كتاب المنتخبات الشعرية ، تعرف شيئا من الفتور، ان لم اقل البرود .

كنت حزينا إلى حد ما . فهذه المرأة تمثل شيئا تمحورت حوله حياتي كلها . شيئا دفعت ثمنه باهظا ، ودفعته راضيا سعيدا ، وانا أرى نفسي ، ودون كل رفاقي ، الذين ينعمون بالاسرة والاولاد والدفع العائلي ، أعيش وحيدا ، لكي لا أخذل فتاة ظل رسمها موشوما بالجمر فوق الذاكرة ، ولذلك فانا لا اريدها ان تخذلني ، ولا للمرأة التي استعارت ملامحها ان تنمو وتتطور باتجاه لا يريده قلبي .

وتأكدت كل ظنوني عندما صرت ألمح في بعض المشاهد المنقولة لها على الشاشة ، وقرأ في التقارير الصحفية ، إشارات إلى لحظات غضبها ، وتوتر أعصابها ، وحدة مزاجها ، وكلها خصال لم اضع شيئا منها في روح وسلوك المرأة التي استقطبت عواطفني على مدى العمر .

كانت هذه الحالة العصبية لشخصيتها الجديدة ، والتي تتناقض تناقضا فاجعا مع شخصيتها الأولى ، اشارة حزينة ومؤسفة لانها حلمي كله .

ولكن ماذا عن الرجل الذي رأى هذه المرأة بعيني ، واختارها بقلبي ، هل تراه قد تواصل مع المحنة التي أعيشها حتى صارت محتته الشخصية ، واكتشف كما اكتشفت ، ان هذه المرأة ، لم تعد هي ذات المرأة التي تزوجها .

وكان طبيعيا بعد ذلك ، ان اكون اول من يصدق انباء الخلافات التي نشأت بينهما ، والتي تبارت صحف الاثارة في نقلها . كانت صحف أخرى

تكذيبها ، وكان الامير والاميرة ينفياها ، ولكنني كنت على يقين كامل من حدوثها ، لا يراودني ادنى شك في ان ما توقعته قد حدث ، وما أحسست به من ألم ومرارة ، قد نقلته حمائم الروح ، ووضعتة بكامله في صدر الامير.

كنت مسئولاً مسئولية كاملة عما حدث . أعرف يقينا ان هذا الخلاف ما كان له ان يكون ، وما كان للامير ان يتحول عن حبه لزوجته ، لو لم اكن مسرفاً في عاطفتي ، سجين حالة التشبث النفسي ، التي بالغت في تصوير هذا التغير الذي طرأ علي طباع وسلوك الاميرة . انني الآن اهدم حياة زوجية لا تهم صاحبها الاثنان فقط ، وإنما تهم ملايين الناس ، رجالاً ونساءً ، تعلقت قلوبهم بهما ، وجعلوهما مثالا يحتذونه في الحياة . وكنت وانا ألوم نفسي ، أقول لها ، بأنني لو تنازلت قليلا عن تصوراتي المسبقة ، وحاولت ان اتواءم مع حركة الزمن ، وسعيت لان استجيب لقوانين التغير والتطور ، لوصلت إلى حل لهذه المشكلة . إذ ما ذنب الأميرة ديانا إذا كانت بشراً كسائر الناس ، يطرأ عليها ما يطرأ عليهم من تغير وتحول وتقدم في العمر . انها ماتزال بالغة الجمال ، يافعة الروح والجسد ، فلماذا احتفظ لها فقط بصورة ذلك الغلاف ، وأرفض ان أرى الألوان الجديدة التي اضفت بهاء على بهاء الصورة . وكنت على يقين بان محاولة كهذه لو نجحت ، لأنقذت هذا الزواج من المصير الحزين الذي يتجه اليه .

قضيت اياماً كثيرة بعد ذلك ، لا أفعل شيئاً سوي قراءة التقارير الصحفية ، وتقليب الصور التي نشرت حديثاً للاميرة ، ومشاهدة الاشرطة المرئية التي تنقل نشاطها ورحلاتها ، لاقترب اقتراباً حميماً من صورتها الجديدة ، وأسعى بجماع عقلي وقلبي لفهمها واستيعابها ، بما في ذلك مزاجها العصبي ، واستقلال شخصيتها وجرأة نظراتها والتفاداتها ، وأسلوب وقوفها وجلسها ، وكنت اظنني في لحظات كثيرة قد حققت تواصلاً وتفاعلاً مع صورتها الجديدة ، وان كل جوارحي صارت على استعداد لقبولها والتعامل معها باعتبارها امرأة الحلم وقد ارتدت ألوانها الزاهية . ولكن ماذا أفعل لهذه الصحف الفضائية التي لا تعرف أزمتي ، ولا تحاول مساعدتي ، وتنقل

معلومات مشوشة تأتي كأنها السكاكين تمزق الصورة القديمة والحديثة للأميرة، إلى حد الادعاء بأنها قامت بمحاولة انتحار ذات مرة، مع إشارات خبيثة تقول بان هذه التحولات لم تكن شيئاً طارئاً عليها، وإنما هي جزء أصيل من شخصيتها، ظل في حالة كمون، ولم يظهر الا بعد ان استوفت المرأة شروط النضج والاكتمال .

أرفض ان اصدقهم ، لان معنى ذلك انني اتخلى عن حلمي ، وأمزق أسطوري بيدي . اتركهم وشأنهم ، وامضي عائداً إلى مراجعي الأصلية . إلى الاميرة ديانا كما تظهر امامي على الشاشة لأعرف منها الحقيقة . لكن بصيرتي ايضا تحذلني ، وتمتنع عن رؤية الاميرة بعيداً عن مناخ الاشاعات والاقاويل التي تطاردها ، فأراها تحمل الشئ ونقيضه ، البساطة والتعقيد ، العنف والبراءة ، انجما يعفرها التراب ، وشمسا يطاردها الظلام ، وزهرة ملكية تغمرها عواصف الثلج ، وتغمر معها شعلة الحب التي اضاءت لي عتمة القلب . وأرى نفسي متأزماً ، مريضاً ، غير قادر على فهم واستيعاب ما حدث . ان هناك شيئاً في الدنيا ، شيئاً قاسياً وبذيئاً ، يمنع طائر السعادة من ان يغرد على الدوام ، ويمنع زهرة الحب من ان ترسل اريجها على مدى الدهر .

وفي لحظة توتر ويأس ، رميت الصحف والاشربة ، واقلت التلفاز ، وقررت ان انفض يدي من الامر كله .

كنت اعرف انني بهذا العمل قد وصلت نهاية الشوط ، وانني مرغماً احكم على هذه العلاقة بالمصير الفاجع الذي هو الطلاق . مدركاً أنني سأعيش ما تبقى من عمري احمل أثامي معي ، لأنني فشلت في انقاذ هذا الحب من الدمار .

فمعدرة أيها الصديق تشارلز

ومعدرة أيتها الأميرة الجميلة ، التي ماتزال صورتها القديمة ، مرسومة فوق صحائف القلب .

موعد تحت برج الساعة

مصت نصف ساعة وأنا أنتظرها . أسند ظهري إلى جدار برج الساعة ، وأرقب مداخل الميدان ، أعلق بصري بأطياف النساء القاديات إليه ، بحثا عنها ، وأتسلى أحيانا بإحصاء عدد النساء والرجال الذين تواعدوا على اللقاء تحت البرج . الذين يأتون فلا يدوم انتظارهم سوى دقيقتين أو ثلاث . يلتقون بعدها بأحبائهم ، ويذهبون ضاحكين متعانقين ، وأنا باق ، أستقبلهم وأودعهم ، كما يفعل هذا البرج ، دون أن أدري لماذا أوصل انتظارا عقيما لا معنى له ، وأبني أبراجا من الأحلام ، نتيجة موعد أعرف منذ البداية أنه لم يكن إلا عبثا . امرأة ألتقي بها علي ناصية الطريق ، فيبهمني جمال عينيها ، وأستوقفها لأتسول منها موعدا ، فتهمز رأسها بالموافقة وتمضي . امرأة لا أعرف اسمها ، ولا تعرف اسمي ، ولم تمكث معي وقتا يكفي لأن تتذكر ملامح وجهي ، كيف أوهم نفسي بأن لي موعدا معها . وأقف كل هذه المدة ، أنتظر أن تأتي راكضة نحوي ، تغمرني بعبق أنوثتها ، وتمنحني نصيبا من عطرها ، وتفسح لي مكانا في دائرة الضوء التي يصنعها جمالها ، وتترك مالدتها من ارتباطات وعلاقات لتصطفيني ضيفا على موائد حبها . إن هذا لا يحدث إلا في الخرافيف .

يجب أن أترك هذا الانتظار الذي لا معنى له — قلت في نفسي — وأمضي للاعتناء بشئوني الأخرى . ولكن أية شئون تنتظرنني ، في مدينة أجنبية جئت منها منذ شهر مضى ولا أعرف من أهلها إلا أرملة عجوز هي مسز «كين» التي أسكن في بيتها ، برفقة ابنتها وكلبها . ثم عدد من الطلاب الأجانب الذين يدرسون

اللغة الإنجليزية مثلي ، والذين لا ألتقي بهم خارج أوقات الدراسة إلا بمواعيد مسبقة . لقد تركت هذا اليوم مفتوحا ، دون ارتباط مع أحد من زملاء المدرسة ، لأنني أوهمت نفسي بأنني أملك موعدا سوف يملأ بالحب نهاري ويلي .

يستوي الآن أن أبقى هنا ، أو أذهب لأتسكع دون هدف فوق أرصفة الشوارع . ربما يكون البقاء هنا أكثر تسلية ، فقلب الميدان أكثر أهمية من أطرافه وشوارعه الخلفية ، ومراقبة العشاق الذين يلتقون تحت هذه الساعة ، لا يخلو هو أيضا من متعة ثم لماذا أتخلّى عن موعد لم احصل عليه الا بالعناء والمكابدة . مهما كان موعدا كاذبا زائفا ، فهو موعد مع امرأة جميلة ، اتحرق شوقا لأن اضع ساعدي حول خصرها ، واغسل وجهي بجداول شعرها ، واعبر ليل المدينة وسط قارب يتهادى فوق أمواج حبها . ما ضرّ أن اعاني قليلا من اجلها وأعرف الشوق ، وأذوق الصبابة ، متمثلا ما يقوله الشعر العربي عن الشوق الذي لا يعرفه إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيتها ، او أهل الغناء الشعبي عندما يقولون ان الحب من غير امل ، اسمى معاني الغرام . لماذا أترك هذا السمو ، وأتنازل عن نصيبي من الصبابة ، واخذل شعراء الحب . لقد قضيت شهرا كاملا ، ارتاد الحانات والمنتديات ، بحثا عن امرأة اواعدها ، فلم أفر إلا بهذا الوعد من هذه المرأة . سألت نساء كثيرات ، ولكنني سألتهن بأسلوب لا يتيح لهن فرصة للتعاطف معي او الاستجابة لطلبي . وملتعثا ، مرتبكا ، متردد الخطى ، اقترب منهن ، واقول نصف الجملة ، ثم أبلع ريقني ، واعالج جفاف حلقي ، وأمسح عرقا تصبب فوق جبيني ، واقول نصف الجملة الثاني ، وقبل ان انتهي من المقدمات ، تكون المرأة قد انصرفت عني ، وهي ترمقني بنظرة استغراب . كنت اريد ان اصرخ فيهن ، بأنني لست مريضا او مخبولا ، وانني احمل في قلبي مخزونا من الحب تراكم لمدة ثلاثين عاما ، ما جئت هنا إلا لكي أبذله عطاء سمحا كريما ، لأول امرأة تمنحني موعدا . ولكن من اين لهؤلاء النسوة ان يعرفن ، انني جئت من بيثة صحراوية ، جعلت رسالتها في

الحياة هي الفصل بين النساء والرجال . وانني لم التق ، طوال حياتي ، بالمرأة خارج إطار العائلة إلا إذا كانت طيفا على الشاشة ، أو صورة على أغلفة المجلات .

ولا أدري كيف صبرت هذه المرأة على حديثي ، وكيف هزت رأسها بالموافقة دون أن تفزعها طريقتي في الكلام . رأيته تقف امام نافذة متجر يبيع ألعاب الأطفال . كان هناك قرد يضرب الطبل ، وراقصة اسبانية ، ترفع طرف ثوبها وتعري نصف ساقها ، وتدور حول نفسها ، فوق صندوق يعزف الموسيقى . وقطار كثير الألوان ، خاليا من الركاب ، يدور فوق القضبان دون محطة يقف عندها . وكانت هي تتابع هذا العرض وقد غمر وجهها فرح طفولي .

استوقفني منظرها ، وحيدة أمام الدكان ، وأعجبني جمال وجهها الذي أضفى عليه المرح مسحة من الألفة والحنان . فوقفت بجوارها أشاركها متعة المشاهدة راجيا أن اجد الشجاعة لابدأ الحديث معها . اقتضاني الامر جهدا هائلا حتى استطعت ان افتح فمي بالكلام ، وعندما تكلمت لم اجد ما اقوله سوى ان اسألها عن الساعة . عدت لاستخدام تلك الحيلة الساذجة المستهلكة التي لم يعد أحد يصدقها . ابتسمت المرأة ، وهي تشير إلى ساعتني التي نسيت أن اخفيها تحت كم قميصي ، وتسألني لماذا لا أستشير هذه الساعة بدلا منها . اعترفت لها بقله حيلتي ، وعجزني عن اختراع ذريعة اخرى تتيح لي ان اكلمها ، لان كل ما اردته هو أن أمد خيطا من الود بيني وبينها . وسألته دون إبطاء ، وقبل أن تبدي استغرابها لهذا الغريب الذي يحمل في يده انوال الود يرميها فوق الناس ، بأنني سأنتظرها غدا تحت برج الساعة ، عند الساعة الخامسة . هزت رأسها بالموافقة ، ومضت دون ان تلتفت وراءها .

كيف إذن اترك موعدا انتزعته انتزاعا بالكد ومغالبة الحرج والقفز فوق أسلاك شائكة زرعته في روعي تعاليم الصحراء . كيف اتخلي عن هذا

المهرجان الخطابي الاحتفالي الذي اعدته لاستقبالها ورصعته بكل ماوعته
الذاكرة من أشعار المحبين واقوالهم .

ثم ماذا عن ذلك الفيض الغامر، من العواطف المحبوسة خلف اضلع
الصدر والذي تلقى الإشارة بأن أيام حبسه قد انتهت ، ولايمكن ان يبقى
ساكننا كما كان .

سأواصل الانتظار . وإذا لم تأت اليوم ، فسأغالط نفسي ، واقول بان
موعدي معها لم يكن اليوم وانما غدا .

لم اترك شيئا خلفي عندما جئت إلى هذه البلاد ، سوى الفراغ وصحراء
المدن والعلاقات ، ولا شئ امامي سوى البحث عن حب يملأ فراغ هذه
اللحظات التي أعيشها في مدينة لا تعرفني ولا اعرفها .

سوف أبحث عن هذا الحب حتى ألقاه . سوف ادخل زحام المقاهي
والحانات وأقف على أرصفة المحطات ، وأطوف المتاجر ، اتسول موعدا من
البائعات ، واقف في الطوابير الطويلة تحت المطر ، افتش عن امرأة تحبني ، بين
رواد المسارح ودور العرض . سوف أهرس لكل واحدة ألتقي بها . بأن موعدا
غدا ، تحت برج الساعة ، ما بين الخامسة والعاشرة . سأمنحها فسحة كبيرة من
الوقت ، لكي تحدد الساعة التي تختارها ، وستجدي واقفا هنا بانتظارها ، لا
يفارقني الامل ، بأنه ذات مساء ، سوف اسمع دقات مرحة ، تصدر عن هذه
الساعة ، وتعلن عن مجئ المرأة التي تطفئ عطش القلب . قد لا تأتي في اليوم
الأول ، او الثاني ، او العاشر ، ولكنها ستأتي في اليوم العشرين ، او الثلاثين ، او
الستين ، او المائة . حتما ستأتي ، لتجدي تحت هذا البرج ، وصحبة هذه
الساعة ، أشرع ابواب قلبي لاحتضانها .

دارت عقارب ساعة البرج دورة كاملة ، وانطلقت دقاتها تعلن السادسة .
مضت الآن ساعة كاملة على الموعد الذي حددناه . وانا صامد ، لا أبرح

مكاني ، ولن أبرحه ، مهما واصلت هذه الساعة إطلاق دقاتها الموحشة الكثيرة .
لم يعد هناك الآن ، أي احتمال لمجيئها ، وسحب الضيق التي أطبقت على
صدري ، تنشر الآن ظلا كثيبا فوق هذه الابنية والقباب التي حولي ، فأراها وقد
غادرتها البهجة ، التي غادرت روحي وقلبي . وأرى نفسي وحيدا ، تائها ،
وسط حدائق الحب ، وبين هؤلاء العشاق الذين يأتون ويذهبون ، وما أكثرهم .
لا أدري إن كنت قد أحصيتهم كلهم ، لعلهم مائة أو أكثر ، جاءوا وذهبوا ،
فانا اغفل احيانا عن اداء هذه المهمة التي صارت وسيلتي الوحيدة لمحاربة
الضجر .

كنت قد بدأت التفكير في لعبة جديدة ، وهي أن اجرب حظي مع هؤلاء
النسوة اللاتي يأتين للانتظار ، ولكن قبل أن أعثر على جملة أقولها ، اجد ان
الرجل الذي واعدها قد وصل ، ليرشق ذراعه في ذراعها ، ويأخذها بعيدا
عني .

لا بأس من محاولة أخرى .

وهاهي صبية عفية ، عامرة بالوعود الجميلة ، تأتي بمفردها ، وتقف تحت
البرج ، تنظر في ساعتها ، لان القلق يساورها ، خوفا من ان يتأخر صاحبها
سأبتهل إلى الله ان يصنع له عائقا يمنعه من المجيئ ، لأقدم لها نفسي ، كبديل
لهذا الرجل الخائن الذي تخلى عنها . ولكن الله لا يأبه لدعاء الخاقدين
الموتورين من أمثالي ، لانه ما ان أكملت دعائي ، حتى جاءها صاحبها
راكضا ، يعانقها ويعاتبها لانها وصلت قبله ، وحرمته من متعة انتظارها .

ها هو يري الانتظار شيئا ممتعا . ماذا اقول انا إذن . يجب ان أحسد نفسي
لأن انتظاري قارب الساعتين . بل هما ساعتان بالضبط . كما تقول هذه
الساعة ، التي أبت إلا ان تناكفني ، وتطلق دقاتها اللعينة التي احس بها
كالطعنات في صدري . انها الآن السابعة . فهل سأنتظر اكثر من هذا

الانتظار؟ ولكن من قال انني أنتظر. انني لم اعد انتظر احدا. انا هنا اتفرج واتعلم واشاهد صورا من الحياة لاعهد لي بها من قبل. ها هي امرأة تعانق امرأة اخرى عناق العشاق. ورجل يضع فوق وجهه مكياج الساء يلتقي بمثيله. سأكذب على نفسي اذا لم اعترف بياسي وضجري. لقد جئت إلى هنا محمولا فوق أمواج الفرح، سعيدا لأنني أملك موعدا مع امرأة تتألق كمصاييح الأعراس، وتصنع أعراسا في قلبي. كنت اعرف عندما فارقتها بالامس، ان ما حدث بيننا لم يكن موعدا. وعدت إلى بيتي وقد قررت أن انسى تلك الإشارة التي أمنت بها على كلامي، والتي لم تكن إلا أسلوباً لبقاً تتخلص به مني. ولكن ما حدث بعد ذلك هو الذي اكدي عليه جدية الموعد. وأثبت في ذهني يقينا جازما بأنها قادمة للقائي تحت هذا البرج. فقد رأيتها تظهر لي في احلامي، بقامتها السامقة وعينيها المليئتين بالنزق الطفولي، ورأيت نفسي انتقل معها في سياحات عبر الفصول، أضع يدي في يدها، وأركض معها بملابس البحر، فوق شاطئ مهجور، واقطف لها وردا في حديقة القصر وهي تخطر بجواري في ثياب الاميرات، وانتقل معها إلى غرفة واسعة، عارية الجدران، خالية من الاثاث، سوى قطعة فراء افترشناها، وموقد نار يدفئ لنا الغرفة ويضئ العتمة، وسط هدير العاصفة والعزف العنيف لأمطار الشتاء خارج الغرفة.

وصحوت من نومي، وكان ما حدث معي في الحلم، لم يكن إلا واقعا عشته معها، أتاح لي أن أعرفها وتعرفني، وربط بين مصيرها ومصيري. وحثت إلى هذا الميدان، واثقا من أن هذه المرأة، لن يكون شأنها شأن اية امرأة طارئة عارضة، ألتقي بها، فتمنحني موعدا كاذبا وتمضي. إن هذه المرأة، هي حصتي، التي طال انتظاري لها، من نساء العالم.

تناهت إلى سمعي دقائق الساعة مرة اخرى. هل هي حقا الثامنة الآن. ولكن متى كانت هذه الدقات تعني لي شيئا. لقد فقدت كل إحساس بالزمن. ورغم ان الانتظار جدير بأن يطيل الوقت، إلا ان حالتي لاتشبه حالات

الانتظار الاخرى . إذ ليس هناك انتظار بلا امل . فالانتظار هو الامل . وانا هنا لا أربط الانتظار الا باليأس . اجعل الانتظار يأسا . وهذه هي الإضافة الصغيرة التي أضيفها اليوم للتجربة الانسانية لتدق الساعة الثامنة ، او التاسعة ، او العاشرة . فسأظل اطفو فوق الزمن ولا أعيره انتباها .

سأقصي سهرتي هذه الليلة هنا ، لأنه لا مكان آخر ، يعدني بمتعة اكبر ، يمكن أن أذهب اليه .

وفجأة ، ومن حيث لا أدري ولا أحتسب ، ولا أجد له تبريرا او تفسيراً ، سوى ان كائنا ملائكيا حنونا ، يحب الشر الذين يقفون تحت الأبراج ، كان يراقبني وأشفق على هواني وضعفي ، فقرر ان يبدل كآبتي فرحا . فجأة اكتشفت ، وانا ارفع راسي ، في اتجاه امرأة تدخل الميدان ، بأن هذه المرأة ليست إلا تلك الأنثى الباهرة التي ضربت لي موعدا . كان شعرها الكستنائي قد تهدل أمامها ، وغطى نصف وجهها فمدت يدها ترفعه عن عينيها النجلاوين ، وقد وقفت تتفحص بهما جمع الواقفين تحت البرج ، تبحث عني . قفزت نحوها وأنا لا أكاد أصدق نفسي ، ووضعت يدي في يدها قائلا بأنفاس لاهثة .

- هأنت تحيئين أخيرا ، فشكرا للسماء .

قالت وهي تنظر في ساعتها :

- أرجو ان أكون قد جئت في مواعيدي .

نعم ، نعم ، قلت لها في خاطري . ان كل المواعيد باطلة ، وكل الاوقات اوقات عاطلة ضائعة ، ماعدا الوقت الذي تحيئين فيه ، والموعد الذي تختارينه لحضورك المبهر الجميل .

كدت ارفعها بين ذراعي ، وأرقص بها رقصاً جنونيا وسط هذا الميدان ، تعبيرا عن عواصف الفرح التي تضرب قلبي .

كان شيئاً أبعد من أي مبرر عقلي ، أن تأتي بعد مضي ثلاث ساعات على موعدها ، ثم تلقاني واقفا انتظرها .

لقد تحققت المعجزة التي كنت أترقبها ، وجاءت المرأة التي رأيته في أحلامي . جاءت في الموعد الذي سمعتهني أحده لها ، لأن ما سمعته هو الثامنة لا الخامسة . لعله ضجيج الألعاب - قلت لها - او لغتي الانجليزية التي لم تصل مرحلة الاتقان ، او اسلوب المرتبك في الكلام هو الذي احدث هذا التحريف . لقد كان حدسي صادقا عندما أرغمني على الانتظار كل هذه المدة . كان يعرف انها قادمة ، ويعرف ايضا إلى اي مدى ستكون حياتي خاوية مضجرة ، بدونها .

هكذا بدأت علاقتي بأول امرأة اواعدها في حياتي . هذا الموعد الذي تأخر كثيرا عن موعده ، لانني انتظرته منذ أيام الصبا ، ولم يتحقق الا وانا ابلغ الثلاثين من عمري .

اكتشفت بعد ان عرفتھا ، وعشت لحظات ادق جسدي بجمر أنوثتها ، وأريح رأسي فوق وسادة حبها ، انني لم استطع ان اتخلّى عن عادتي ، في تسول المواعيد من كل امرأة أصادفها . أترك صاحبتي هذه ، وأذهب إلى برج الساعة كل مساء ، أرقب مداخل الميدان بحثا عن طيف امرأة جديدة ضربت لي موعدا . أدركت ان جوعي للحب ، صار جوعا أبديا ، لن يجد له إشباعا مدى العمر . لقد ادمنت الانتظار تحت البرج ، وكأني اعوض بهذا الانتظار ، كل السنوات التي عشتها ، محروما من هذه المواعيد . أقف وحيدا ، أعاني واتعذب ، وراقب ظلي وهو يمتد ويزداد طولاً بمحاذاة ظل البرج ، حتى تغمره ظلمة الليل ، وأتسلى بإحصاء عدد العشاق الذين يأتون ويذهبون ، أنتظر أن يأتي دوري ، مع امرأة جديدة ، تهدل الشعر الذهبي فوق عينيها ، فرفعته تبحث عني ، لأركض نحوها قائلاً :

- شكرا للسماء ، هانت تيجئين أخيرا .

من يخاف أجاثا كريستي

اخترت مكانا جيد الإضاءة، في عمق الصالة، وجلست أقرأ قصة بوليسية مترجمة لأجاثا كريستي، أعبر بها الوقت الضائع، وألهث مع كلماتها ألاحق الجرائم التي يرتكبها مجرم مجهول، وأتحرق فضولا لمعرفة الفاعل. دون أن أنتبه إلى الرجل الذي جاء وجلس بجواري على ذات الأريكة، برغم المقاعد الشاغرة الكثيرة التي تملأ صالة الفندق. فاجأني وهو يحني رأسه قريبا مني، يتأمل سطور الكتاب الذي أقرأه. رفعت رأسي أنظر إليه باستغراب، فابتسم دون إحساس بالخرج، ووضع عينيه في الكتاب وهو يسألني بلغة إنجليزية:

- تبدو لغة غريبة. هل هل السنسكريتية؟

- إنها العربية.

قلت ذلك بإهمال، ودون رغبة في مواصلة الحديث، أو اهتمام بخطوط الدهشة التي ارتسمت فوق جبينه. دسست وجهي في الكتاب أبحث عن السطر الذي توقفت عنده، بأمل أن يكون الرجل قد أرضى فضوله وقرر أن يتركني مع كتابي. أحسست بأنفاسه قريبة مني وكتفه يزاحم كتفي، وقد أحنى رأسه يتأمل الكتاب من جديد. وفي غيظ أقفلت صفحات الكتاب ونظرت نحوه باستنكار أسأله دون كلام أن ينصرف عني، ولكن الرجل وضع على وجهه تلك الابتسامة التي لا معنى لها، قبل أن يقول:

- إذن فأنت عربي.

لا حول ولا قوة إلا بالله . إنه لا يريد أن يعتقني . وعالم القصة الملى بجرائم القتل يجعلني أكثر حذرا ، ويجعل مزاجي أكثر حدة في مواجهة المتطفلين من أمثاله ، ولم يبق أمامي إلا أن أترك له هذه الصالة ، وأبحث عن مكان آخر .

- نعم أنني عربي . وأنت ؟

لا أدري لماذا تورطت في إبداء هذا السؤال الذي يفتح بابا للحديث لن أستطيع إغلاقه . ربما لأنني أردت أن أعرف إلى أي جنسية ينتمي هذا الحيوان الفضولي . ولماذا اصطفاني أنا بالذات لكي أكون أنيسه وجليسه هذه الليلة . قال ضاحكا :

- أنني خلاسي .

اكتفيت بهذه الكلمة التي لا تعني شيئا سوي أنه إنسان منبت . لا أصل له ولا جذور . فشكله فعلا لا يوحي بأن له انتماء لجنس بعينه . أومأت برأسي شاكرا . وكأنني أقول له بأن هذا كل ما أريد أن أعرفه . وعدت إلى الكتاب أفتحه وأفتش بين سطوره عن القاتل . أشعل هو لفافة تبغ ارتشف منها نفسا عميقا ، ثم أطلق دخانها في الهواء ، فصرت أدفع عن نفسي سحب الدخان ، وأضرب الهواء بيدي ، في تشنج وعصبية ، في حين واصل هو الحديث غير عابئ بما أبدية من ضيق ونفور .

- والدتي امرأة زنجية ، نزحت من أفريقيا ، وأبي مهاجر من أيرلندا ، التقيا في كوستاريكا عندما كانا يعملان في مزارع التبغ . ولذلك فإن التبغ في دمي . رضعته مع حليب أمي . هل لك في سيجارة ؟

- شكرا . لا أريد .

أنعم به من نسب ، قلت في خاطري . لعله يكتفي بهذا القدر من الشرح ، فأنا لا أملك وقتا أقضيه في الاستماع إلى قصة حياته . المنقوعة في أحوال مزارع

التبع . إنني أتعقب قاتلا شديد الدهاء ، ولابد أن أهددي إليه بين هؤلاء المشبوهين الذين يملأون عالم القصة . وهذا السيد الكوستاريكي يجعل مهمتي الآن أكثر صعوبة .

- إنني كوستاريكي بحكم المولد فقط . فأنا دائم النزوح . هندوراس . بيرو . كولومبيا . بيرمودا . كلها بلادي بحكم الإقامة . فالنزوح جزء من طبيعتي . إنه الإرث الذي أحمله في دمي .

يجب أن أعيد قراءة الصفحة من جديد ، وإلا أضعت الخيوط التي ستقودني إلى القاتل . لن أدع هذا الرجل الذي تربى في مزارع التبغ ، والذي يهوى تغيير الأوطان وتبديلها كما يفعل الناس مع جواربهم ، يمنعني من متعة البحث عن القاتل واكتشافه . لقد وضعت الكاتبة في طريقي ، رجلا شقيا ، يدمن المخدرات ، ويعمل وسيطا بين الغايا وزبائن المتعة ، لتوهمني بأنه القاتل في حين أن القاتل الحقيقي ، لن يكون غير ذلك المحسن الكبير الذي ينشئ المستشفيات ويتبرع بهاله للملاجئ الأيتام . إنه مجرد حدس ، فأنا مازلت أحتاج إلى مزيد من القرائن حتى أصدر حكما قاطعا بإدانته .

- جئت إلى مالطا في شأن من شئون الجمعية الخيرية التي أتشرف بعضويتها . جمعية تهتم بضعحايا أمراض الوحدة والكآبة ، وترعاها الكنيسة الكاثوليكية . سننشئ فرعا هنا . .

امتلا رأسي بصليل أجراس الحرائق ، ووقع حوافر الخيول التي يركبها فرسان القديس يوحنا في غزواتهم . ها هم رجال الخير والتقوى ، يهيمنون على فضاء القصص البوليسية بمثل ما يزايموني في قاعات فنادق الدرجة الأولى . لقد رأي الرجل أجلس وحيدا ، زاهدا في الحياة الليلية الصاخبة التي تضج بها هذه الجزيرة ، فظن بأخلاقيات فيارس من القرون الوسطي ، أنني من ضحايا أمراض الكآبة الذين يحتاجون لرعاية جمعيته الخيرية . ولكنني على يقين من أن

الذي استدعاه إلى مجلسي ، ليس إلا شخصيات هذه الرواية ، التي أعجبها التماثل بينها وبين مناقب هذا الرجل ، فاستخدمت سلطة الخيال ، تسيطر بها على واقعي ، وتجيئ بهذا الرجل ، من أقصى بقاع الأرض ، وتهبط به على مقعدي . كان قد أطفأ لفافته فارتاحت أعصابي قليلا . تأملته وهو ما يزال يرتدي قناعه الباسم ، أحاول أن أهتدي إلى القواسم المشتركة بينه وبين شخصيات الرواية . على مشارف الستين ، بني البشرة ، له ملامح دقيقة ، أكسبتها سنوات العمر المتقدم ، رقة ورهافة ، ومنحتها مسحة من الألفة والمودة . يرتدي سترة أنيقة بيضاء ، وقميصا مزركشا ، ينبئ بشباب القلب ، ويضع في يده ساعة تشع بلون الذهب ، دليل البسطة والرخاء . لو قابلته في وقت غير هذا الوقت ، وبعيدا عن هذه القصة البوليسية التي تملأ رأسي بالخيالات المفزعة ، لأعجبني مظهره الوديع ، وارثت لصحبته .

- أسمى البرتو .

مد يده لمصافحتي . وضعت يدي في يده وسحبته دون أن أذكر له اسمي . فقد قررت أن أترك له المكان ، وأنتقل مع كتابي إلى مكان آخر . وقبل أن أنهض من مقعدي ، جاءت هي راكضة ، تحفق بذراعيها العاريتين ، وصدرها النافر الراقص . ترتدي قميصا صيفيا وبنطلونا من نوع الجينز . حسبتها ابنته ، ولكنه قدمها لي قائلا :

- روزيتا . زوجتي . إنها خلاسية مثلي .

كان ما رأيته شيئا لا ينتمي إلا لعالم جميل مدهش ، أكثر بهجة من عالمنا . عالم اختفى منه اللصوص والقتلة ، كما اختفت منه أمراض الوحدة والكآبة . وما هذه الابتسامة ، التي تحمل وعدا وبشارة وفرحا ، وهاتان العينان النجلوان اللتان تملآن نصف الوجه ، وترسلان إشعاعا ينفذ إلى القلب ، إلا علامة على ميلاد هذا العالم الجديد الجميل . جلست ذاهلا أعلق بصري بها ، وأذوب في

سحر حضورها . الجسد تمثال للأنوثة في مجد زهوها وتفجرها . والوجه مرسوم بريشة مغموسة في ألوان الأفق ساعة انبلاج الصبح يتوهج ويضئ ، وكأن هذه المرأة ، قد هبطت لتوها من مراكب الشمس . أهملت الكتاب ، بعوالمه السوداء التي تتعامل مع أكثر المناطق إظلاما في النفس البشرية ، وصرت ألوم نفسي لأنني جعلت هذا الكتاب مرجعا ، ودليلا ، أهتدي به لمعرفة البشر الذين حولي . تفتحت مشاعري مثل زهرة عباد شمس عندما تسقط عليها أشعة الكوكب الذي يضئ الكون ، وامتزجت فرحتي بشئ من الأسى وأنا أسأل نفسي ، لماذا يكون حظي دائما على هذا النحو المحزن؟ لماذا لا ألتقي بالمرأة التي تشعل الحرائق في دمي ، إلا وهي بصحبة رجال آخرين ، سبقوني إليها ، وجاءوا يصنعون سدا بيني وبينها . احتلت هي كرسيا شاغرا قبالتنا ومضت تحدث زوجها عن متجر التحف الملحق بالفندق ، وتدعوه لأن يأتي معها ، لعلها يجدان شيئا يشتريانه للذكرى . أقنعها بأن تذهب إلى المتجر بمفردها ، بحجة أنه مشغول بالحديث معي ، وخاطبني بعد ذهابها قائلا .

- إننا زوجان دون زواج . أي دون عقود رسمية ، واحتفالات كنائسية . لاشك أنك تعرف شيئا عن تزمّت الكنيسة الكاثوليكية . ولذلك فقد فارقت زوجتي الأولى دون طلاق ، وتزوجت روزيتا دون زواج . إننا سعداء بهذا الترتيب الجميل .

لا أدري لماذا أحسست بشئ من الارتياح عندما قال هذا الكلام ، وكأن مرافقته لها دون زواج ، تزيح قيда أخلاقيا ، وتحررني من الحرج الذي أحس به وأنا أرى قلبي يشرد وراء امرأة متزوجة .

- لم أتشرف بالاسم الكريم .

- سامي .

قلت الاسم دون تردد هذه المرة ، ولكن بعد أن حرفت اسماعيل إلى سامي .

- إنه اسم سهل نطقه ، سامي ، سنكون أصدقاء .

لم أقل له أنني مسافر غدا . وأن وجودي في مالطا لم يكن إلا نتيجة سبب طارئ ، فقد تأخرت الطائرة التي أقلتني إلى مطار هذه الجزيرة ، عن ميعاد إقلاع طائرة أخرى كانت ستقلني إلى مدينتي . فأسكنتني شركة الطيران في هذا الفندق ذي النجوم الخمس ، الذي ما كنت أحلم بأن أكون نزىلا من نزلائه في يوم من الأيام . ولأنني كنت معدما ، لا أملك نقودا ارتاد بها الملاهي ، فقد جلست بعد أن تسكنت قليلا في الشوارع ، في هذه القاعة أحارب الفراغ بقراءة هذه القصة البوليسية .

كنت مازلت متحرجا من سؤاله عن السبب الذي جعله يترك المقاعد الأخرى ، ويختار الجلوس بجواري . ولكنه أغنانني عن السؤال ، عندما قال وكأنه يقرأ أفكاري :

- لعلك تستغرب لماذا جئت وحلست بجوارك . كان منظر غريبا ، وأنت تجلس بمفردك في هذا الفندق الفاخر ، الذي يمتلئ بالملاهي وصالات الرقص والقمار ، تقرأ كتابا . السائح لا يأتي إلى مالطا ليفعل ذلك . لأن بإمكانه أن يبقى في بيته إذا أراد أن يقرأ الكتب . ظننتك تنتظر صديقا . ولكنني عندما تركت الفندق وعدت بعد أكثر من ساعة ، لأجدك مازال تقرأ هذا الكتاب ، أدركت على الفور أنك رجل نادر . رجل استثنائي ، استطاع أن ينجو بنفسه من سباق الفئران ، ويحتفظ بشخصيته المتميزة ، التي تنتزه عن تقليد ومجارة الآخرين . تذكرت على الفور القديس أوغسطين . العمل الطويل بجمعيتنا ، جعلني أملك بصيرة أهتدي بها إلى البشر المتفردين ، الذين يعيشون في عالمهم الخاص المليء بالثراء الروحي . فأحببت أن أتعرف إليك .

شكرته على هذه البصيرة النافذة ، التي تملك القدرة على التواصل مع القديسين واحتسابي واحدا منهم . ولكن لماذا تراه اقتحم هذا العالم الخاص

الذي رأي مستمتعا به؟ هل أقول له إن العالم الذي ظنه عالما فريدا روحانيا ، لم يكن إلا عالم الجيوب الفارغة الذي دعاني لأن أسجن نفسي في هذه القاعة ، وأبقى بصحبة القتلة والمجرمين الذين يمتلئ بهم عالم أجاثا كريستي . وأنني ما كنت لأعبأ به ، أو بما يقوله من شفافية بصيرته لولا هذه الأنثى المحملة بعواصف وبراكين جبال الأنديز، وتوحش غابات الأمازون ، التي جاءت منها ، والتي أرغمتني على أن أتخلّى عن عالمي الخاص وأسعى للاحتراق داخل عوالمها . تأكد لي أنه قادر على قراءة الأفكار، عندما قال :

- مارأيك في روزيتا . لا تقل إنها لم تفتنك بجهاها . لأن هذا ما تفعله مع كل الناس . جميعهم يسقطون ضحايا حبها منذ أول نظرة . أليس هذا ما حدث لك أنت أيضا؟

ماذا بأمكاني أن أقول لقد عبر عن مشاعري بأكثر مما أستطيع البوح به . فأنا لست إلا واحدا من ضحاياها ، دون ريب . وبما أنه ألبسني مسح القديس أوغسطين ، فإن اعترافاتي لا يجب أن تكون أقل صراحة من اعترافاته . قلت له :

- نعم . هذا ما حدث معي . ويجب أن تعذرني في ذلك . لأن لها جمالا يستحق العبادة .

ثم وضعت يدي على كتفه ، وكأنني أطلب منه الصفح على ما بدر مني ، قائلا له :

- إنك رجل محظوظ ، محظوظ جدا يا صديقي ، لأن الآلهة أكرمتك بها دون غيرك .

ولا أدري ماذا أصابني ، فبقيت ذاهلا ، صامتا ، أنظر في الفراغ ولا أبدي أية حركة عندما سمعته يقول ، دون تمهيد أو إنذار:

- ألا تحب أن تستضيفها هذه الليلة في فراشك .

كانت هذه الجملة صفة قوية ، هبطت على وجهي ، فجعلتني غافلا عن الدنيا لدقيقة أو أكثر . لم أستطع أن أصدق أن هذه المرأة ، سلعة للبيع والشراء ، وأن هذا الرجل تاجر ، يبيع فتنتها وجها لها لزبائن الفنادق الراقية . كان كتاب أجاثا كريستي ، مازال بين يدي ، وسطوره التي تحكي عن سيطرة الجنس ، تضغط الآن على ذاكرتي ، وكأنها تشير إلى هذا التوافق الغريب بين ما يحدث في الكتاب ، وما يحدث الآن .

ماذا أستطيع أن أقول له الآن ؟ لم يكن جلوسه بجواري إذن ، إلا جزءا من الخطة التي أعدها لاصطيادي ، ولم يكن حديثه عن الكنائس والقديسين والجمعيات الخيرية إلا غلافا جميلا ، يغلف به نفسه ، حتى يجعل الناس يأنسون إليه ، قبل أن يكشف لهم هويته الحقيقية . لاشك أنه كان يعرف أنني عربي ، واحتسني من أثرياء العرب ، عندما رأي أقطن فندقا من فنادق الدرجة الأولى . لابد أن تجاربه علمته أن العرب أكثر كرما عندما يتعلق الأمر بامرأة لها مؤهلات روزيتا .

كنت قد استعدت توازني بعد الصدمة التي أحدثها عرضه الفاخر .

- وما هو الثمن الذي تريده مقابل ذلك ؟

أردت منذ البداية أن أستخدم لغة تتفق وقواعد المهنة التي يقوم بها .

- كل ما نريده هو إسعادك .

هذا ما يقوله أرباب الابتزاز في كل أنحاء الدنيا . يمتنعون عن تسمية الثمن بحجة أنه لاغرض لهم سوى إسعادك . ليتني أستطيع أن أظاهر بالغباء ، وأصدق أنه أثري بهذه الهدية الباذخة ، نتيجة إعجابه بي ، ورغبته في إسعاد رجل يعاني الوحدة والكآبة مثلي ، فأمضي بها إلى غرفتي ، واستضيفها في فراشي ، دون أن يطالبني أحد بدفع الثمن .

كانت روزيتا قد عادت في هذه اللحظة ، وفي يدها قلادة من الخرز الأزرق ، تبدي إعجابها بها ، وتسأل زوجها الوهمي عن رأيه فيها . أخذ منها القلادة يقلبها أمام عينيه ، ويطري روزيتا على ذوقها ثم أضاف وهو يلتفت نحوي .

- روزيتا تؤمن بالحظ ، وتعتقد أن الخرز الأزرق يجلب الفأل الحسن .

أعاد إليها القلادة قائلاً :

- صديقنا سامي معجب بك . ويريد أن يقضي هذه الليلة في صحبتك ، فما رأيك ؟

- الرأي رأيك يا عزيزي .

- إنه يسأل عن الثمن ، فأخبرته أن الحب لا ثمن له ، لأن المسألة ليست بيعاً وشراءً .

ابتسمت المرأة في دلال ، قبل أن تقول :

- نعم يا عزيزي البرتو . فالدنيا كلها لاتساوي شيئاً بغير الحب .

ثم أضافت وهي ترفع بصرها نحوي .

- إنه يروق لي . فهو إنسان لطيف ، يحب قراءة الكتب . أنظر إليه . إنه مازال ممسكاً بالكتاب ، ويضع أصبعه بين الصفحات ، يخشى أن يضع منه السطر الأخير الذي توقف عنده .

مد ألبرتو يده يأخذ مني الكتاب .

- هل رأيت . أن روزيتا تحبك ، وتغار عليك من هذا الكتاب . دعنا نطوي هذه الصفحة هكذا . يمكنك أن تعود إليه غداً .

طوى الصفحة وأعاد لي الكتاب قائلاً :

- لم يعد لي مكان بينكما . سأذهب إلى غرفتي الآن ، وأراكما غدا . حظا سعيدا لكما .

ذهب البرتو وتركني وحدي في مواجهة هذه المرأة الخلاسية القادمة من جبال الإنديز . لم يكن ممكنا لهذا الجمال الباهر ، هذه المائدة الإلهية العامرة بأصناف ، اللذة والفرح ، أن تبقى احتكاراً لرجل واحد في الدنيا . خاصة إذا كان هذا الرجل معنيا ، مثل البرتو ، بهموم البشر المصابين بأمراض الوحدة والاكتئاب من أمثالي . فهو يعرف أن علاجاً كهذا سوف يضمن لهم الشفاء العاجل الناجع . أردت أن أسأل روزيتا عن سر علاقتها بهذا الرجل الذي يتعيش من بيع لحمها في الاسواق ، ولكنني وجدته سؤالاً مجانياً ، لن يضيف لي معرفة جديدة ، وقد يسبب كدراً لها . فهذه هي قواعد السوق . لقد أدى السمسار مهمته ، وسوف ينال ثوابه بعد انتهاء الصفقة ، ولم يبق أمامي إلا أن أعرف الثمن ، حتى أنسحب بكرامتي ، وكأن انسحابي جاء اعتراضاً على مبدأ الاستغلال وليس عجزاً عن دفع الثمن . وقبل أن أبادرها بالسؤال ، تطوعت هي بالإجابة قائلة في جمل بطيئة ، تفصل بينها لحظات صمت وتأمل ومداعبة عصبية للخرز الأزرق ، إمعانا في الحبكة وإتقان الدور .

- البرتو توسم فيك الشهامة منذ أن عرف إنك عربي .

إذن فقد صدق حدسي ، إنه لم يأت للجلوس بجواري إلا بعد أن أكمل تحرياته عني . توقفت روزيتا قليلاً عن الحديث ، وهي ترفع أهدابها الغزيرة نحوي وتضع عينيها الكبيرتين المضيئتين مباشرة في عيني . لم تكن تحتاج لأن تستخدم معي كل هذه الأسلحة ، فأنا منذ أن رأيته أعلنت استسلامي ، ورفعت أمامها الرايات البيضاء دليل عجزٍ وهزيمتي .

- وأدرك أنك أنت الذي ستنقذنا من ورطتنا .

نعم . نعم . هكذا تبدأ القصص الجميلة التي يحكيها الشطار من أهل

الحيلة والخداع . أراهن أنها ستحدث عن النقود التي سرقها اللصوص ، أو استولى عليها أصحاب موائد القمار، الذين يبتزون براءة الزبائن الذين يأتون للفرجة والتسلية .

- لقد سهرنا البارحة في صالة القمار بهذا الفندق ، ودون أن ندري وجدنا أنفسنا نخسر كل ما معنا من نقود . قد لا تصدق أنه لم يبق بحوزتنا ما ندفع به ثمن إقامتنا في الفندق التي استمرت أكثر من أسبوعين .

ها هي تؤكد حدسي مرة أخرى . إنني واثق من أنها تعرف ، أنني أنا أيضا أعرف ، إن ما تقوله ليس إلا حكاية ملفقة . ولكن الثمن الكبير الذي تطلبه في حاجة هو الآخر إلى غلاف من الخيال الجميل الذي يزيل عنه الفجاجة والسوقية .

أعجبني قدرتها على تلفيق هذه الحكاية ، وتأسفت في خاطري لأنني لم أكن أملك مالا ينقذها من ورطتها الوهمية ويشترى لي ليلة حب معها . تذكرت أنني لست ضحية لخداعها فأنا الذي خدعتها بوجودي في هذا الفندق ذي النجوم الخمس ، حتى ذهب في ظنهما أنني من الأثرياء القادرين علي شراء هذه الموائد الإلهية . ولذلك سأواصل لعبة الخداع ، وسألعبها مع نفسي هذه المرة ، سأحارب فورة الدم في عروقي التي تطالب بلحظة اشتباك مع دمها وعروقها . سأدعي أمام نفسي بأنني أعافها ولا أريد معاشرتها ، لأنها امرأة سوقية تبيع نفسها في أسواق اللحم البشري ، أعرف أنني أكذب على نفسي ، وأن اشتعائي لها ، الذي لم يتحقق هذه الليلة ، سيترك حسرة لن تنطفئ في قلبي . وسأستخدم أجانا كريستي ، وعالمها المليء بالمجرمين في لعبة الخداع هذه . سأفتح الكتاب الآن وسأبحث عن الصفحة التي توقفت عندها لأوهمها بأنني زاهد في إتمام الصفقة معها . رأيته تنظر نحوي باستغراب ، وأنا افتح الكتاب ، فقلت باسما :

- إنها قصة بوليسية مثيرة .

اكفهر وجهها وتشنجت أصابعها وهي تمسك بالخرز الأزرق ، وسألني بانفعال :

- ماذا قلت ؟

- قلت لك إنها قصة لأجاثا كريستي عامرة بالغموض والإثارة .

- أعني ما قولك فيما أخبرتك به .

- إنها فعلا ورطة . أتمنى صادقا لو أقدر على المساعدة ، ولكن . . .

- ولكن ماذا؟ ألم تقل إنك تريد أن تقضي وقتا معي .

- أتمنى أن أكون عريسك ولو لساعة واحد ، ولكنني أحتاج إلى عام كامل حتى أستطيع توفير المهر الذي تطلبينه .

- الذنب ليس ذنبك . أنه ذنب ألبرتو الذي يضعني دائما في مثل هذه المواقف اللعينة .

ثم أضافت وهي تنهض غاضبة :

- سهرة ممتعة بصحبة أجاثا كريستي .

وبخطى سريعة غادرت القاعة . ذهبت روزيتا ، تحمل معها عبير أنوثتها ، وضوء ابتسامتها ، وبقيت وحدي مع أجاثا كريستي ، وعوالمها السوداء ، المليئة بجرائم القتل الغامضة .

ليلة الأقنعة

دخل إلى قاعة الاحتفال ، يضع فوق وجهه قناع الحمار.

كانت إدارة القرية السياحية قد وضعت في برنامجها ليلة اسمتها ليلة الأقنعة ، وعرضت داخل حانوت القرية ، اعدادا كثيرة ومتنوعة من الأقنعة لكي تتيح لرواد هذه الحفلة مجالا واسعا للاختيار.

ذهب قبل ساعات من موعد الحفل ، إلى الحانوت ، ووقف وسط غابة الاقنعة يحاول ان يجد قناعا يروق له . وضع فوق وجهه قناع الاسد ، فوجده ضيقا ، يضغط علي صدغيه وذقنه وجبينه ، ونظر إلى وجهه في المرآة ، وشاهد عينيه وهما تتحولان إلى جزء من ملامح الاسد ، فوجدهما لا يليقان بمهابة ملك الغابة . وبرغم شراسة الانياب ، وكثافة الشعر الذي يحيط بوجه الاسد ، واتقان مصمم القناع لبقية الملامح ، الا أن هاتين العينين هما اللتان تجعلان الاسد اسدا . كذلك الحال مع النمر ، الذي بدت عيناه اكثر انطفاء عندما ارتدى قناعه ، ووضع عينيه مكان عيني ذلك الحيوان الذي يشبه سهما مشتعلا . تأكد له انه لا يصلح لدور زعيم من زعماء الغابة ، وعليه ان يبحث لنفسه عن مكان متواضع بين افراد الرعيه . وقبل ان يهبط باختياره إلى الفتات التي تشكل أدنى درجات السلم الاجتماعي بين كائنات الغابة ، رأى ان يحاول حفظه مع الصقر . انه طائر ، نبيل كريم ، يحب الحرية ، ويعشق القمم العالية ، وجدير بمثل هذا القناع ان يمنحه احساسا بعلو الهمة ويزيل عنه الحرج الذي يشعر به دائما في

مثل هذه الحفلات اللاهية . ولكنه عندما نظر إلى وجهه في المرآة ورأى المنقار المدبب الطويل ، ومساحة العينين الضيقتين ، أدرك إلى أي مدى يصنع هذا القناع نشازا مع بقية جسمه . أعاد القناع إلى مكانه وهو يشعر بالأسف ، ومضى يتأمل الأقنعة الأخرى المعلقة في الحانوت . ترك الحيوانات ذات القرون ، فلم يقترب منها مثل الثور ، والجمال ، والوعل ، والتيس ، بما في ذلك وحيد القرن ، فهو لا يريد أن يسعى بين الناس وقد وضع فوق رأسه قرنا أو قرنين . ولكنه لم يتردد في تجريب أقنعة كثيرة أخرى . الحصان والكلب والقط والذئب والثعلب والارنب والقرد والدب والضبع ، كلها وضعها فوق وجهه .

وتأمل صورته في المرآة وهو يرتديها ، وسأل البائعة عن رأيها فيها فلم ترضها الصورة التي ظهر بها ، ولم ترصه هو أيضا . رأى اقنعة أخرى تحمل وجوه ضفادع وجردان وسحالي وسناجب فلم يقترب منها ، لأنه لم يشأ أن ينتمي لعالمها ، ومضى إلى صف يضم اقنعة مستوحاة من افلام الرسوم المتحركة وابطالها مثل ميكى ماوس ، والبطة دونالد دك ، والخنزير السبعة ، فوجد أنها أقنعة دارجة ، مستهلكة ، لا تثير فضوله . وقف حائرا ، يحول ببصره في معرض الوجوه الحيوانية ، وهو يضحك من نفسه ، ومن فكرة هذا الحفل الذي لم يعهد مثله من قبل . ويسأل نفسه إن كان من الحكمة أن يكون طرفا في مسخرة كهذه ، حتى وإن كانت تليق بصبيان دون العشرين ، فهي لا تليق بمن وصل مثله إلى منتصف العمر . أراد أن يغادر الحانوت ويعدل عن فكرة المشاركة في الحفل التنكري ، عندما رأى وهو يخطو باتجاه الباب قناع الحمار يعترض طريقه . وقف يعاود التفكير وينظر إلى القناع . تذكر العلاقة التي ربطت بينه وبين هذا الحيوان عندما كان صغيرا لم يغادر القرية بعد ، ورأى بخياله صورة ذلك الحمار العجوز الهزيل الذي كان يعيش معهم داخل البيت ، ويعاملونه كفرد من أفراد العائلة ، وعادت إلى الذاكرة تلك المشاوير التي كان يذهب فيها رفقة الحمار إلى غابة النخيل خارج القرية أو إلى حقول البطيخ ، حيث يعود به

محملاً بالبلح أو البطيخ أو الحطب ، وهو يركب فوق الحمولة ، يدندن ويغني ، والحمار يمشي سعيداً وكأنه يرقص ، ونشأت ألفة بينه وبين ذلك الحمار حتى صار يتولى بنفسه تقديم الماء والطعام له ، وعندما اشتد بالحمار المرض نتيجة الهرم ، أخذوه إلى البادية ليلقى مصيره فريسة للسباع . عرف بما حدث فظل لأيام طويلة يبكي أثناء الليل ، ويسأل أهله بحرقة ولوعة عن مصير الحمار بعد الموت ، وعما كانت الحمير أيضاً تذهب إلى الجنة .

فقد كان يرى ان هذا الحيوان الطيب الصبور المكافح ، هو أجدر الكائنات بدخول جنة الرحمن .

رأته البائعة يقف طويلاً أمام قناع الحمار ، فمدت يدها تناوله القناع وتساعده في تثبيته فوق وجهه . أحس منذ اللحظة الأولى لارتدائه ، ان هذا القناع هو بالضبط ما كان يبحث عنه . وسأل البائعة فأبدت حماساً كبيراً لوجه الحمار ، ورأته يليق به أكثر من أي حيوان آخر . كان القناع مريحاً ، وكانت ملامح وجه الحمار الكبيرة تصنع فراغات واتساعات لاتضغط على أذنيه وعينيه وأنفه وفمه كما هو الحال مع الأقنعة الأخرى ، وتتيح له ان يرى ويسمع ويتنفس ويتكلم دون مشقة . وعندما نظر إلى وجهه في المرآة ، أعجبه هذا التناسق بين وجه الحمار وبين مظهره الخارجي ، وكأن جسمه لم يخلق الا ليناسب رأس الحمار . لم يعد ثمة داع للتردد ، لقد جعله هذا القناع أكثر حماساً للمشاركة في مثل هذا الحفل الطريف ، الذي سيكون هجاء لحياة البشر ، وتمجيذا لعالم البهائم والحشرات . اشترى القناع وانتظر حتى جاء موعد الحفل ، فوضعه فوق وجهه ، ودخل إلى القاعة الفسيحة التي سبقه إليها جمع غفير من لابسى الأقنعة . اكتشف انه وسط غابة تمتليء بمختلف اشكال الحيوانات . أجال بصره في ديكور القاعة ، وشاهد اشجاراً سامقة مصنوعة من ورق كرتوني تتسلق الجدران وتتدلى منها عراجين الضوء . فأحس كأنه يدخل غابة سحرية .

كل شئ داخل الغابة بدا منسجما مع روح الحفل ، بما في ذلك منشطة الحفل التي بدت وكأنها جنية من جنيات الغابة . علقت في جيدها عناقيد الزهور، ورشقت وردا احمر وابيض بين جدائل شعرها الأشقر، وارتدت فستانا يشبه اجنحة الفراشات ، تحيط به دوائر فوسفورية تجعله يلمع ويضيئ ، تركت وجهها عاريا لكي تميز نفسها ، عن بقية رواد الحفل ، ممن غطوا وجوههم بالأقنعة ، وارتدوا ملابس السهرة العادية ، فصار سهلا عليه ان يميز بين الذكور والإناث .

كانت منشطة الحفل ، تمسك مكبر الصوت وتسأل الحاضرين ان يمتنعوا عن الحديث بلغة البشر، وان يمرنوا أنفسهم منذ بداية الحفل ، على إصدار أصوات تتفق مع الاقنعة التي يرتدونها . امتلأ المكان بنقيق الضفادع ، وصهيل الجياد وزئير الاسود، وعواء الذئاب ، ونباح الكلاب ، ومواء القطط ومأمة الحملان وخوار الثيران ، وصياح القروء ، ووجد أن عليه ان ينهق مقلدا صوت الحمار.

ظل صامتا لفترة قصيرة ، يحاول ان يتغلب على الحرج الذي يحس به . لقد ارتضى ان يضع فوق وجهه قناع الحمار، اما ان يتمثل احاسيسه وسلوكه ويصدر نهيقا مثله ، فهذا ما بدا له مهمة بالغة الصعوبة . وجد ان منظره وهو يقف صامتا ، يثير الدهشة في عيون رفاقه من ساكني الغابة . فبدأ ينهق بصوت خافت . اعجبته اللعبة ، وأحس بمتعة الاندماج في أجواء الحفلة ، فصار يرفع صوته وينهق نهيقا عاليا كما تفعل حمير قريته . اكتشف ان هناك آخرين ينهقون مثل نهيقه ، رجالا ونساء ، يرتدون مثله قناع الحمار . فأحس بالارتياح لأنه ليس الحمار الوحيد في هذا الحفل .

وكانت جنية الغابة ، ترفرف بأجنحتها تحت الأضواء ، وتمسك مكبر الصوت وتنهئ المحتفلين بإجاداتهم لأدوارهم ، وقدرتهم الفائقة على التحول من

طبيعتهم البشرية إلى طبيعتهم الحيوانية التي اكتسبوها منذ لحظات قليلة ، وتدعوهم لأن ينسى كل واحد مهنته وتعليمه ومستواه الاجتماعي ، والبلد الذي ينتمي اليه ، ويسعى لأن ينسجم انسجاما كاملا مع روح وطباع وشخصية القناع الذي يرتديه ، فهي لا تريد ان ترى بشرا هذه الليلة ، وانما حيوانات الغابة وهي تفرح وتحتفل بهذا السلام الذي تحقق بين فئاتها المتصارعة . لكن الصراع لم يكن قد اختفى نهائيا من فوق أرض الغابة ، فها هم الذكور يطوفون حول الإناث ، كما تفعل ذكور الغابة مع اناثها ، ويتحرشون ببعضهم البعض . ها هو أسد يخاصم اسدا حول امرأة ترتدي قناع إنثى الأسد ، وها هو قرد يناوش قردا آخر حول امرأة ترتدي قناعا ينتمي إلى فصيلة القرود . غير انه تحرش يكتفي بالزئير والصراخ ولا يصل إلى العراك والاشتباك بالانياب والبرائن ، مراعاة لتقاليد اللعب ، وحرصا على مبدأ السلام الذي تحقق لأهل الغابة .

حاول هو ايضا ان يجد حمارة يطاردها ، وينهق قليلا في وجه الحمار الذي يطوف حولها ، ولانه لم يجد واحدة قريبة منه يلعب معها ، فقد مضى يشق الزحام بحثا عنها . وقبل ان يصل اليها ، رأى امرأة ترتدي قناع القطة ، عرف على الفور انها ذات المرأة التي رآها تخرج من دكان الأقنعة وهي ترتدي ذات القناع ، كان قد رآها قبل ذلك ، وانتبه إلى مؤهلاتها الأنثوية ، التي زرعت أشجار النار في قلبه ، صدر فائر يمشي امامها ، وشفقتان مكتنزتان تفصل بينهما انفراجة صغيرة ، وكأنها في حالة استعداد لتلقي القبلات ، وجسم يترجرج ويصدر دعوة صريحة للدخول في لعبة الحب . حاول في إحدى الليالي الراقصة ان يتعقبها وان يفوز برقصة معها ، فاخترق الحصار الذي يضربه حولها رجال معجبون بجمالها ، حتى وصل اليها ، فلم يجد منها غير الرفض والصدود . لعل هؤلاء المعجبين يغفلون عنها هذه الليلة ، فلا يبتدون إلى شخصيتها وهي تتنكر خلف هذا القناع ، فيهنأ بليلة حب معها . انه لم يأت في هذه الإجازة ، وينضم إلى هذه القافلة من السواح الذين انتهى بهم المطاف إلى هذه القرية السياحية ،

إلا بحثاً عن مغامرة عاطفية، يتيحها له تسامح العلاقات في هذه المدن الاجنبية، تكون تعويضاً لأيام القحط والجفاف التي عاشها وسط تقاليد مدينته الصحراوية، التي ترتدي قناع الفضيلة، وتفصل بين الرجال والنساء.

ولكن كيف تراه يستطيع ان يقفز فوق الحواجز التي وضعتها الطبيعة بين القطط والحمير. ليته عاد إلى الدكان، عندما رآها تشتري قناع القطه، واشترى قناعاً مثل قناعها، إذن لسهل عليه ان يفوز بصحبته هذه الليلة، ان للعبة قوانينها، فكيف يستطيع العبث بهذه القوانين التي تمنعه من الوصول اليها. ادرك انه كان حماراً بالفعل لا بالقناع فقط.

كانت منشطة الحفل قد وجدت ان الوقت صار مناسباً للرقص. لقد نجحوا في الاختبار الاول عندما هجروا لغة البشر، إلى لغة العواء والنهيق والزئير، وها هي تدعوهم إلى الاختبار الثاني، الذي يؤكدون به انتماءهم إلى المملكة الحيوانية. دخلت إلى حلبة الرقص، وبمساعدة الموسيقى، ودائرة الضوء التي تتبعها، والتي تجعل المادة الفوسفورية في رداؤها اكثر توهجا وإشعاعاً، تحولت إلى فراشة من نار، تحفّق بذراعيها، وترقص وكأنها تطير في الهواء. ودعت الحاضرين إلى ان يرقصوا مثلها، رقصاً يتناسب مع الأقنعة التي يرتدونها. ليحاول الاسد ان يرقص الرقصة التي تناسب الاسود، وهكذا مع الغزلان والثيران والقروود والصقور، بدأ الناس يضربون الهواء بأقدامهم ورؤوسهم وأيديهم. يقفزون كالقروود، ويسبحون بأذرعهم في الهواء كأجنحة الطيور، ويضربون الارض بحوافرهم كالجياد، ووجد نفسه وسط موجة تحمله معها، وتقذف به في قلب حلقات الرقص. فصار يرفع رأسه إلى أعلى يتنسم الهواء، ويقلد الحمار في حالة هيجانه وهو يركل الارض ويضرب الهواء بحوافره، منتشياً بهذه الحرية التي يمنحها له قناع الحمار، يرفض ويبرطع ويدوس على أقدام الآخرين او يدوسون على قدمه، فلا شئ يهم. انه مستمتع

بهذه الطبيعة الحيوانية التي تتيح له ان يرقص دون ان يخشى على نفسه لوم اللائمين لانه مجهل قواعد الرقص .

واصلت الفرقة عزفها الذي يشبه العواء ، وواصلت الاضواء التي تأتي من سقف القاعة ، في شكل دوائر وومضات سريعة ، تدفقها الذي أصفى على حركة الراقصين مزيدا من الاثارة ، وتابع هو رقصه البهيمي ، واصدار نهيقه بين الحين والآخر ، كلما اقتربت منه امرأة تهز صدرها وعجيزتها وهي تقلد رقص الخنازير . احس بالتعب . فترك ساحة الرقص ، وانتحى جانبا يستلقط انفاسه ، ويمسح العرق الذي ينضح به عنقه وصدره ويحاول ان يهتدي إلى المرأة التي ترتدي قناع القطه ، بعد ان تاهت عنه اثناء الرقص . تجول في زوايا القاعة باحثا عنها ، فاكشف ان هناك غرضا صغيرة تجاور القاعة ، شحيحة الاضاءة ، مليئة بالارائك والكراسي المريحة ، التي جلس فوقها عدد من رفاق الحفلة ، وتوزعوا أزواجا ، ذكورا وإناثا ، يتسامرون ويتعانقون ، ويتركون أقنعتهم أحيانا ، ليقبلوا بعضهم بعضا دون التزام بتعليمات مذيعة الحفل ، ودون التزام بأن يرافق الذكر امرأة من بنات جنسه ، فقد رأى في هذه الغرف ، الأسد يرافق كلبة ، والثور يعانق سحلية ، ووحيد القرن يجالس الزرافة ، والذئب ييث حبه للدجاجة ، والوعل يناجي الخنزيرة . لقد كان حمارا عندما ظن ان للغابة قانونا . ان الغابة تقفز فوق كل القواعد والقوانين . هذه إذن فرصته لأن ينفرد بتلك القطه التي سحرت عقله وقلبه ويرتشف من كأس جمالها وانوثتها حتى الارتواء . لم يستطع ان يصل إليها بأساليب البشر ، فليحاول ان يصل إليها بأساليب كائنات الغابة . مضى يبحث عنها ، دون ان يعبأ هذه المرة ، بحديث المذيعة التي مضت تحرض رواد الحفل على الاندماج في ادوارهم وتخريبهم بجائزة كبرى سوف تخصص للفائز الذي يبز الآخرين ببراعة تجسيده وتقليده للحيوان الذي اختار ان يرتدي قناعه . رأى قطته تقفز بين الراقصين وتصدر مواء ينضح إغراء وجنسا ، فسار حتى وصل إليها ، ومضى يرقص وينهق

بجوارها ، يداعبها ويلعب معها ، ويحاول ان يجعلها تأنس له . أبطأ العزف وابطأت معه حركات الراقصين ، فرآها فرصة لأن يراقصها رقصا بطيئا . احاطها بذراعيه ، وألصق جسمه بجسمها ، واسند رأسه فوق رأسها . احس بها تدفعه عنها وتحاول ان تحرر جسمها من قبضته لكي تعود إلى رقصها السريع ، ولكنه ازداد التصاقا بها وحرصا على أن يبقئها في حضنه . تشنج جسمه كله وهو يحتوي جسمها ويمنعها من المقاومة . مضى يراقصها رغما عنها ، ويدفع بها أثناء الرقص باتجاه الغرفة التي تجاور القاعة . وصل بها إلى باب الغرفة ، وجرها بقوة إلى احدى الارائك وهي ماتزال تقاوم وتحتج حتى أجلسها فوق الاريكة وارتمى بجوارها يعتذر لها عن هذه الطريقة المفجة التي عاملها بها ، لانه لم يجد طريقة غيرها وسط هذا الصخب والعواء ، يرغمها بها على ان تستمع اليه ، لان لديه شيئا مهما يريد ان يقوله لها . وقبل ان يبدأ في سرد اقواله المهمة ، أمسك بذراعها وأعادها بقوة إلى الأريكة ، ولكي يمنعها من الهروب ، ارتقى فوقها ، يسألها ان تستمع لما سيقوله لها وان تتيح له فرصة ان يفوز بلحظة حب معها . اطلقت هي صراخا عاليا ، جعل الحاضرين يهبون لنجدها ، ويتعاونون على رفعه من فوقها . كان هو قد أدرك قبج فعلته ، فوقف مرتبكا ، عاجزا عن الكلام ، ترى كيف يبرر فعلته ويدافع عن اتهامها له بمحاولة اغتصابها ، هل يشفع له ان يقول بانه كان فقط يداعبها ويلعب معها كما يحدث في افلام الرسوم المتحركة ، ام تراه يخبرهم بانه اندمج في دوره استجابة لقوانين اللعبة وتعليمات المشرفين على هذه الحفلة ، فلاحق لهم في لومه اذا ما أتقن دوره وتمثل أحاسيس الحمار وراودته الشهوة الحيوانية التي تراود الحمير .

لقد كان حمارا ، ولأنه لا يملك وجهها جميلا ، ولا صوتا عذبا ، ولا عقلا نابها يزهو به أمام كائنات الغابة ، فقد استخدم الشئ الوحيد الذي تفوق به على بقية الكائنات ، أداة الإخصاب لديه .

أحس بالفزع الشديد ، وهو يراهم يسحبونه من ذراعه ، ويسوقونه إلى

المنصة ويقفون به تحت الاضواء الساطعة ، وقد غمر القاعة صمت الترقب والانتظار. كان على يقين بأنهم سيفضحونه امام رواد هذه الحفلة ، ويدينون سلوكه المشين الذي سيقوده إلى المحكمة وإلى أعوام من السجن تناسب مع جريمة الاغتصاب . ولدهشته الشديدة وجدّهم يضعون كأساً في يده ، ويعلقون طوقاً من الزهور في عنقه ، ويعلنون اسمه باعتباره الفائز الأول في المسابقة ، الذي انسجم سلوكه مع القناع الذي يرتديه ، لقد كان جديراً بأن يحمل لقب الحيوان الأول هذه الليلة .

الانتقام

تقلقني دائما هذه المشاهد، التي أهملتها الذاكرة زمنا طويلا، وخبأتها في جيب من جيوبها السرية، ثم أخرجتها فجأة إلى سطح الأنا التي تتعامل مع الدنيا فتظهر دون سبب واضح لظهورها المباغت. وتأتي مصحوبة بنداءات تطالب بالانتقام، وتضج بأماكن ووجوه وأصوات وخصومات قديمة، ظننت أنها سقطت من ثقب الذاكرة بحكم التقادم ولكنها ظلت تختبئ في مكانها، واختارت هذه اللحظة لمداهمتي، وقد حملت في يدها سيطا تجلديني بها، وتمنعي من أن أهنأ بلحظات الراحة التي ينعم بها بقية الناس. وهي لاتأتي كما تأتي الذكريات الأخرى التي تحولت بفعل كيمياء الزمن، إلى أشباح وأطياف لاملامح لها، وإنما تجيء وقد ارتدت أقنعة عصرية، وملابس تنكزية تخفي بها طبيعتها التي تنتمي إلى ماض بعيد، لكي توهمني بأنها جزء من حاضر مازال يواصل فعله في الواقع والحياة. فأجد نفسي، متورطا في لعبة الانتقام وتصفية الحساب التي ساقنتني إليها، اشتبك في خصومات انتهى زمانها، مع أناس لم يعد لهم وجود إلا في ذهني. أتصارع معهم، وأنتقم لنفسي منهم، وقد واتتني الآن الفصاحة، التي غابت عني في ذلك الزمن القديم، لأقول لهم كلاما لم أقله يوم وقوع الواقعة، كما واتتني الشجاعة، لأفعل ما أحجمت عن فعله ذلك اليوم البعيد. ألوم نفسي، وأشبعها تقريعا وتوبيخا، لأنني صبرت، مثلا، على ظلم ذلك المدرس الذي جاء يعاقبني، عندما كنت تلميذا صغيرا، على فعل لم ارتكبه. يعاودني غصبي، وأحس بلسعة العصا فوق أصابعي، كما

أحس بعرق المهانة يغمر جسمي ، لأنني استسلمت لظلمه ورجعت إلى مقعدي صامتا أكتنم غيظي . إنني لن أنام هذه الليلة قبل أن آخذ بثأري . لا بد أن أعيد ترتيب المشهد من جديد ، لكي أستطيع أن أفعل ما لم أفعله ذلك اليوم . هأنا الآن أثور في وجهه ، وبدلاً من أن أمنحه يدي ليضربها ، أمد يدي لأمسك العصا التي يهددني بها ، قائلاً له ، لقد أخطأت في حقي ، لأنني لست المذنب وإنما المذنب تلميذ غيري ، لاشك أنك تعرفه ، وتتجنب أن تعاقبه ، إكراماً لوالده الذي يمنحك رشوة كل شهر باسم الدروس الخصوصية . أقول هذا الكلام وأنا أتقلب في سريري ، وانتظر نوما لا يأتي ، لأن سلوك ذلك المعلم الذي مضى عليه أكثر من أربعين عاماً جاء الليلة يقلقني ، ويطرد النوم من عيني ، فأقفز فوق حاجز الزمن ، وأنصب هذه المحاكمة لمعلمي القديم ، وكأنه يمثل الآن أمامي ، وكأن خصامي معه لم يحدث إلا هذه اللحظة .

أعرف يقينا ، أنه لا معنى الآن لانفعالي وغضبي ، ولا قيمة لهذا الكلام الذي جئت أقوله لمعلم ، هو الآن يتقاضى جزاء ظلمه لي ، في الدار الآخرة التي لا بد أنه انتقل إليها .

ولكن ، ماذا أفعل إزاء هذه الذاكرة العجيبة ، التي تعيد إنتاج مشاهد الظلم والأذى ، وترغمني على أن أعيش ما يرافقها من ألم ومعاناة ، سنين طويلة بعد وقوعها .

وهذا بالضبط ، ما حدث معي اليوم ، وأنا أطوف الدكاكين أبحث عن لعبة أقدمها هدية لولدي في عيد ميلاده . . إنها مناسبة للابتهاج ، ولكن ذاكرتي - ساعها الله - تأبى إلا أن تمنحني مناسبة أخرى للكدر ، وهي تخرج لي من بئر ذكرياتها القديمة المهجورة ، مشهداً آخر ظل نائماً في الظلام ، أكثر من عشرين عاماً .

تلتحم اجزأؤه المفككة بعضها ببعض ، فيعود المشهد طازجا ، يرتدي ألبسته الحديثة وكأنه لم يحدث إلا منذ دقائق مضت . وإذا بالرجل أمامي ، واقفا خلف طاولة الحانة ، بلحيته الحمراء المدببة ، ونظارته الطبية ذات الإطار المعدني الرفيع ، وحاجبيه المعقودين فوق عيين صغيرتين كعيني جرد ، يخدم زبائن الحانة ، في تلك المدينة ، في ذلك اليوم الممطر ، منذ أكثر من عشرين عاما . ينتهي من خدمة الزبائن الآخرين فلا يبقى أحد غيري . ينظر نحوي باستنكار وأنا أعاود تذكيره بالطلب الذي طلبته ، ومتأففا يرمي أمامي الكأس ويلتقط من يدي النقود التي قدمتها له . ينهمك في غسل الأكواب ، ومسحها بالفضة ، وهو يخاطب زبونا آخر من أبناء جلدته ، تصادف أن كان بجواري يحتسي كأسه ، قائلا له :

«لماذا يجب أن نخدم هذه النفائات البشرية» . يقولها دون أن يلتفت نحوي ، ولكنني أعرف لحظتها أنه لا يقصد أحدا سواي بتلك الكلمات المهينة ، المنقوعة في عطن الحقد والعنصرية . أتظاهر بأنني لم أسمعه ، وأقبض على كأسني بأصابع متشنجة ، وأنا أحاول أن أسيطر على انفعالي . ثم أفرغ الكأس في جوفي وأغادر الحانة على الفور . يستيقظ المشهد الآن بكامله في ذاكرتي ، وتستيقظ معه أمراض القرحة التي ابتلنتني بها مشاهد الظلم والأذى التي تلاحقني . أحس بالألم والمهانة ، فأقول لنفسي ، لماذا كنت جبانا إلى هذا الحد . لماذا بقيت صامتا ، وصبرت على إهائته وانسحبت من أمامه دون أن أرد عليه . لماذا لم أصفعه . أبصق في وجهه . أرميه بالكأس حتى تتحطم عويناته الطبية فوق أنفه ، قائلا له ، انظر إلى وجهك في المرآة أيها الوغد لتعرف أين هي النفائات البشرية ، ومن منا يعيش على حساب الآخر ، أنت أم أنا . انظر إلى السلالات التي أنجبته لتعرف من منا كان نفاية بشرية يعيش على أذى الآخرين ، أنا أم أنت ؟ .

انتبه إلى أنني دخلت في مرافعة تاريخية ، قانونية ، تدين سلوكه وسلوك أسلافه . مرافعة جاءت متأخرة عن ميعادها عشرين عاما . وأسأل نفسي لماذا غابت هذه الفصاحة لحظة احتياجي إليها ، وكيف يمكن أن أعثر على آلة الزمان ، التي تعيدني إلى تلك اللحظة وذلك المكان ، لأنصف نفسي ، وبني جسي ، من عنصرية رجل يشتغل جرسونا في إحدى الحانات .

يأبي المشهد أن يغادر ذهني ، حتى وأنا أدخل المتجر واشتري اللعبة وأغادر السوق . أحس بالإعياء ، فأبحث عن كرسي فارغ أريح فوقه جسми ، وأنعشه بفنجان من شراب ساخن .

تلوح لي عبر جدار المقهى الزجاجي ، طاولة فارغة ، فأقصدها ومعني لعبة الصغير . أضع اللعبة فوق الطاولة ، وأفص عنها الغطاء والأشرطة ، وأخرجها من علبتها ، وأحاول أن أتسلى بها ، عليها تطرد الضيق الذي يملأ صدري لا بد أن الولد سيفرح بها ، فهي لعبة حديثة ، من هذه الألعاب الألكترونية التي صارت تستقطب اهتمام الصغار . تشبه آلة حاسبة بحجم الكف ، وقد حلت مكان اللوحة التي تحمل الأرقام ، شاشة يظهر عليها رجال يتحاربون . تستغرقني اللعبة وأنا أحاول أن أفك رموزها . لأكتشف أنها معركة بين العساكر وأحد اللصوص ، والفوز معقود لمن يجعل اللص يهرب من شباك ورصاص العساكر . «هاهم يلقنون أطفالنا درسا تربويا بديعا ، يليق بمعاملات الناس في هذا الزمان» قلت لنفسي ، وأنا أضع عقلي وقلبي في خدمة هذا اللص ، وأحاول أن أهرب به من هذه الكمائن الكثيرة التي ينصبها له رجال الشرطة . اندمج في اللعب ، فلا أنتبه إلى الجرسون الذي اخترق زحام الموائد ، وجاء يقف بمحاذاتي . أسمعته يخرج صوتا لاعمى له ، فأحس بالخرج وهو يراقبني ألعب بحماس مثل الأطفال . وبلهجة مهذبة ، أسأله أن يحضر لي قهوة بالحليب . يهمهم بكلمات مضغومة بها نبرة احتجاج ، فأظن أن احتجاجه جاء من طبيعة

هذا الطلب الذي يريده أن يمزج القهوة بالحليب ، فهو يضاعف العمل دون أن يضاعف الأجر ، ولكن ماذا أستطيع أن أقول له ، إنني أحب القهوة ، وما الحليب إلا حيلة ألجأ إليها عندما أغلف به القهوة ، لأخدع الجروح والقروح التي تملأ المعدة لكي لا تنثور وتغضب عند وصول القهوة إليها . ولكنني قبل أن أرد عليه مبررا هذا الطلب ، أسمعته يقول بلهجة صارمة :

- ألم تقرأ اللافتة .

عن أي لافتة يتكلم . لعلمهم لا يبيعون القهوة . ولكن الآلة التي تصنع القهوة ، والعامل الذي يقوم بإعدادها ، كلاهما موجود خلف ذلك الحاجز الخشبي . وهاهم اناس حولي يشربونها ، فما سر هذا الحديث الغامض عن لافتة لا وجود لها . يتفضل الجرسون بشرح جملة الغامضة قائلا :

- يمكنك أن تبحث عن القهوة والحليب في مكان آخر . أما هنا ، فنحن نخصص هذه الساعة ، لتقديم وجبة الغداء .

يقول جملة ويهرول لاستقبال زبائن دخلوا المقهي ، ووقفوا بجوار الباب يبحثون عن مكان للجلوس . يفاجئني منظره وهو يقودهم إلى طاولتي ، ويشير بيده كأنه يطردني . لا يسعفني الوقت حتى أعيد اللعبة إلى الصندوق ، أو أعيد تغليفها بالورق والأشرطة الملونة . كان العساكر يطاردون اللص ، ويصلون إليه ، ويمزقون جسمه بالرصاص ، وهو يصدر أنينا موجعا ، دون أن أستطيع إنقاذه .

أضرم إلى صدري كومة الورق والأشرطة ، وأطبق بأصابع متشنجة على اللعبة ، وأنسحب وأنا أكتنم غيظي . لكي لا أثير مزيدا من الفضول لدى زبائن المقهي الذين ينظرون بإشفاق نحوي . أصل إلى الشارع ، وأقف أنظر بأسف وأسى إلى طاولتي التي أجلاني عنها الجرسون الذي امتزجت صورته الآن

بصورة الجرسون ذي اللحية الحمراء ، الذي أيقظته الذاكرة وجعلته يلح على ذهني وأنا أدخل المقهى فأدرك أن ذاكرتي لم تفعل ذلك عبثا . إنها لم تخرج جرسون الأمس من تابوته المدفون في قاعها المظلم ، إلا لكي تنذرني بما سيفعله معي جرسون اليوم . وإنني لأتساءل الآن ، ترى كم عاما سوف يمضي ، قبل أن يعود مشهد اليوم إلى ذاكرتي وأجد أن السنين قد منحنتني لسانا فصيحاً أتكلم به وأستخدمه في الدفاع عن حقي ، ومنحنتني يدا قوية أصفع بها وجه هذا الجرسون الذي أهانني وسط حشد هائل من زبائن المقهى .

العقاب

أفزعني وأنا أتجول في مركز المدينة ، وأمشي متمهلا فوق أرصفة الشوارع الكبيرة العامرة بالمُتاجِر والمقاهي والبشر، أنني لا أهتمدي إلى انسان واحد أعرفه .

كنت قد تركت منزلي مبكرا، لأن زوجتي كانت تستقبل بعض زائراتها، واخترت قبل أن أذهب إلى مكتبي ، كما أفعل كل مساء ، أن أمضي الي مركز المدينة واستعيد بعض ذكرياتي مع من ألقاه صدفة من أصدقائي الذين أدمنوا الجلوس في المقاهي .

سرت تائها وسط هذه الوجوه الغريبة التي لا أدري من أين جاءت ، وكيف امتلأت بها شوارع المدينة في غفلة مني ، فهي مدينتي التي لا أعرف مدينة سواها ، ولدت في بيت من بيوتها القديمة التي تجاور البحر، وذهبت صغيرا إلى مدارسها ، ولعبت كرة الخيش في حوارياها ، وغذيت أوهام الحب أيام الصبا ، من أضواء شرفاتها ونوافذها ، وأهرقت أيام الشباب فوق أرصفتها ، وتعلمت تدخين السجائر والثروة في السياسة في مقاهيها ، يحيط بي الأصدقاء ، أينما ذهبت ، فكيف وأنا علي مشارف الخمسين من عمري الذي أعطيته لها ، إجد نفسي غريبا في شوارعها ، كأنني أدخل مدينة لم أرها ولم ترني إلا هذا اليوم .

ومن ميدان الشهداء إلى ميدان الجزائر، عائدا عبر كورنيش البحر إلى الجزء القديم من المدينة ، حيث ميدان الساعة ، وسوق الحلقة ، وسوق الترك ، وباب

الحرية، وشارع الرشيد، ثم عائدا عبر شارع عمر المختار إلى ميدان الشهداء مرة ثانية، أمرق من شارع إلى شارع، وأقف أمام المقاهي أتصفح وجوه الجالسين فلا أجد أحدا أعرفه. كيف حدث هذا؟ ولماذا؟ وما هو السر الذي أفرغ المدينة من كل سكانها الذين أعرفهم. تذكرت أنني شخصيا لم أقم بمثل هذه الجولة في مركز المدينة، منذ أكثر من عامين، ومع أنني أسكن حيا محاذيا لهذا المركز هو حي المنشية، إلا أنني لا أكاد أجد وقتا لمثل هذا التسكع الجميل، الذي كان عادة يومية في أول مراحل الشباب. مكنتي بمركز البحوث التاريخية، الذي كان يأكل ساعات الصباح، صار الآن يستولى على كل ساعات المساء، بعد أن صرت رئيسا لقسم الوثائق بهذا المركز. وما تبقى من فراغ، فهو محل صراع لا ينتهي بين الواجبات العائلية والمنزلية، وبين مهمات علمية خارج المركز، فلماذا استغرب، إذا كان أصدقائي هم أيضا، مشغولون مثلي بمسئولياتهم العملية والعائلية، التي تمنعهم من ترف التسكع في الشوارع والجلوس في المقاهي. ثم لماذا أنسى، أن مدينة طرابلس، لم تعد تلك المدينة التي لاتضم سوى أهلها، كما عرفت أيام الطفولة والصبا. لقد كبرت، وتضخمت وارتدت أقنعة المدن الكبيرة التي لاتظهر عواطفها للناس. خاطبت نفسي بمثل هذا الكلام، باحثا عن اعذار لمدينتي التي تعاملني هذا المساء معاملة الغرباء.

تذكرت أنني أعرف صديقا قديما يملك دكانا في سوق المشغولات اليدوية، فذهبت مسرعا إلى هناك أبحث عنه، فلاشك أن وجوده سوف يخفف قليلا من وطأة هذا القلق الذي أشعر به. كان سوقا صغيرا، مسقوفا، به حلقة من دكاكين أصحاب الحرف اليدوية، وتجار الهدايا التذكارية كان بعضهم قد أخرج طاولة أمام دكانه ووقف يستخدم مطرقة وينقش أشكالا تقليدية فوق صحنون الفضة والنحاس التي يبيعها للسواح. لم أستطع أن أهتدي إلى دكان صاحبي، وتفحصت وجوه أصحاب الدكاكين فلم أعثر عليه بينهم، لكن

الجو العامر بالزحام وصخب النقاشين ، أنساني خيبة أمني في العثور عليه .
فصرت أتقل من دكان إلى آخر ، أتفرج على المعروضات وأقف قليلا أمام هؤلاء
الفنانين الشعبيين أتأمل الغزلان والأهلة والأسماك والطيور والزهور التي
يرسمونها فوق الصحف ، دون أن أنسى المهمة التي جئت من أجلها ، وهي
العثور على إنسان أعرفه ، يطرد من قلبي هذا الفزع الذي أصابني وأنا أجد
نفسي غريبا في مدينتي . وانتبهت فجأة إلى أن الطرقات التي كانت تملأ فضاء
السوق ، قد بدأت تخفت تدريجيا ولم أعرف سببا لذلك ، إلا عندما أجلت
بصري بين أصحاب المطارق ، فوجدتهم يمدون أعناقهم وأبصارهم باتجاه نقطة
محددة في منتصف السوق ، حيث تنتصب قاعدة رخامية أقاموا فوقها معرضا
لمشغولاتهم ، وأمام تلك القاعدة ، وقفت امرأة تتفرج على المعروضات ، هي
التي أثارت اهتمامهم . أصابني ما أصابهم من ذهول ، فقد كانت المرأة من
ذلك النوع الذي لانتلقي به إلا نادرا في الحياة . قد نراه طيفا على الشاشة ، وقد
نرى صورته على أغلفة المجلات الملونة ، أما أن نراه يخطر أمامنا ، كائنا مفعما
بالحيوية والحياة ، يمشي ويتحرك ويقف بقربنا ، فهذا ما كان يستحق أكثر من
مجرد وقفة ذهول ، إنه يستحق أن ينخرط الجميع في السجود شكرا لله الذي
أبدع هذا الجمال وأرسله إليهم . كان أول سؤال خطر علي ذهني ، هو ، هل
ينتمي هذا الجمال إلى هذه البيئة ؟ هل هي حقا امرأة ليبية ؟ إنه مكان يضج
بالسائحين والسائحات من زبائن الهدايا التذكارية . ولكنني أراهن على أنها
امرأة ليبية ؟ لن يخدعني هذا الزي الذي ترتديه والذي بدا بأناقته وانسجام
ألوانه ، وجمال المساحات الفارغة التي يتركها لإظهار مفاتن الجسد في منطقة
العنق والصدر والكتفين ، وكأنه ينتمي إلى أرقى بيوت الأزياء الفرنسية ، ولن
يخدعني هذا الشعر الناعم السواد الذي صنعت منه تاجا ، وزينته بمشابك
الذهب وتركت سباسب منه تسقط فوق الجبين والخدين ، لتظهر التباين
الجميل بين سواده ونقاء بشرتها فبدت وكأنها أميرة جاءت من مدن الأساطير ،

لن يخدعني مابدا في مظهرها الخارجي ، من ارتفاع عن موروثات البيئة المحلية ، فأهمل رؤية ذلك الشئ الذي ينتمي انتهاء حميما إلى هذه الأرض وهذه البيئة ، والذي يظهر جليا في جمال وسواد عينيها ، وكأنها استعارا هذا السواد وهذا الجمال ، من عيني أجمل الغزالات في الصحراء الليبية ويظهر في لون بشرتها ، ذلك اللون الذي يشبه السهوب الرملية التي انعكست عليها أشعة شمس آخر النهار، وتظهر أيضا في استدارة هذه الوجه القمري ، وشدة صفائه ونقائه ، متفقا مع مقومات الجمال كما يحددها الموروث الشعبي . ثم هناك شئ آخر، أبعد من أن يحيط به الوصف الخارجي ، لأنه يتصل بتلك الدبدبات التي نلتقاها من إنسان تغذى بشمس وهواء ذات البلاد التي تجمعنا ، والتي تمنحنا شفرة سرية ، نستخدمها في الاهتداء إلى أبناء وبنات بيثتنا . وقفت ذاхла ، أتأملها ، وأشكر الله أن كافأ رحلتي إلى مركز المدينة بما رافقها من قلق وعناء ، هذه المكافأة السخية التي لم أكن أنتظرها ، فها هو الوجه المألوف الذي أردت أن أراه ، يتخذ شكلا جديدا وغير مألوف ، ولكنه عامر بعناصر الدهشة والإبهار، يتخذ شكل امرأة ليبية ، نزعت عن وجهها الأغلفة القديمة ، وخرجت إلى الشمس والهواء ، وهي تتألق جمالا وفتنة وكبرياء . ولعل لبيتها هذه ، هي التي جعلتني أنفعل بجمالها أكثر من انفعالي بكل من رأيت من جميلات الدنيا أثناء سياحاتي بالخارج ، لأنه جمال بخاطبني بلهجتي المحلية ويتجه إلى مراكز الحس والذاكرة ، فيثير كل العواطف والإنفعالات التي أنبتتها هذه البيئة في نفسي . ولو كان عمري قريبا من عمرها وكنت شابا أعزب لم أتزوج بعد ، لدخلت أعتى المعارك من أجل الفوز بها . ولكن قطار العمر مضي بعيدا عن أية محطة تتيح لقاء بيني وبينها ولم يبق أمامي إلا أن أطوي حسرتي في قلبي ، واكتفي بنعمة النظر إليها والارتواء من جمال عينيها ، دون أن أمد بصري وفكري إلى أبعد من ذلك .

كان أصحاب الدكاكين قد عادوا لاستخدام مطارقهم ، ونقش رسومهم ،

بعد أن أرضوا فضولهم ، واستوعبوا صدمة الالتقاء بهذا الجمال . عاد السوق إلى صخبه وواصلت أنا الاستمتاع بصخب آخر تضج به الدماء في عروقي . إنها امرأة بعيدة المنال فلا أقل من أن أحتفظ بصورتها في ذاكرتي ، لكي أستحضرها واتدفاً بنار فتنتها في ليالي الشتاء . سأأملها جزءا جزءا ، وأحتسي جمالها جرعة جرعة ، الشعر والجبين والحاجبين ، الرموش والعينين والخدين ، الأنف والشفتين ، العنق والتهديد ، الخصر والأرداف والساقين ، كل ذلك في رداء جميل من الشموخ والكبرياء ، فمن أي مكان من هذه المواقع ، تنطلق السهام التي تخترق القلب ؟ ومن أين لخراط البنات ، كل هذه المهارة ، ليضع كل هذه الفتنة في جسد امرأة واحدة ؟ وكسم كأسا شربت من خمر هذا الجمال ، حتي تخدر جسمي بالنشوة والثمالة ؟ وكأنها انتبهت لنظراتي ، فرفعت رأسها وشيعت رموشها ، تنظر نحوي . اصطدمت نظراتي بنظراتها ، فأزحت بصري عنها مرغماً وكأنني أخشى أن تعاقبني ، لأنها أمسكت بي متلبسا بالنظر إليها . ولدهشتي الشديدة ، رأيت المرأة تتحرك من مكانها ، وتتجه نحوي . كنت قد أدت بصري إلى الناحية الأخرى ، ولكن طرفا منه ، كان يستطيع أن يلتقط صورتها وهي تسير باتجاهي ، بإيقاع منتظم يعزفه كعب حذائها العالي . اعتقدت ، عندما اقتربت مني ، أنها سوف تتجاوزني وتمضي إلى صاحب الدكان الذي أقف قريبا منه ، ولكنها وقفت أمامي فأدرت لها وجهها أذهلته المفاجأة ، لأنها وضعت رموشها سهاما في صدري ، واحتوتني بابتسامة أضاءت الدنيا من حولي ، وبسطت يدها لتحيتي فوضعت يدي في يدها وكأنني لا ألمس يدا ، وإنما أتواصل مع جذور الفرح وعناصر الجمال في الكون كله . وانفرج الفم البهيج عن أولى الكلمات التي قالتها :

– فرصة سعيدة أستاذ حامد .

ولا أدري ما الذي شعر به ذلك الشحات الذي جاء غريبا إلي مدينة من

مدن ألف ليلة وليلة ووقف وسط جمهور حاشد يشاهد موكب الأمير عندما رأى الموكب يتوقف ، ورأى الأمير يهبط من محفته ويتجه إليه يأخذه بالأحضان . ولكنني لم أكن أقل استثارة ودهشة منه ، وأنا أرى هذه المرأة التي تأتي لتحيتي وسط زهول أصحاب الدكاكين وزبائن السوق . ترى من تكون هذه المرأة؟ وكيف عرفتني؟ ولماذا جاءت لتحيتي؟ إنني لست شخصية عامة يقصدها المعجبون ويطلبون التعرف إليها ، ولا أذكر أنني التقيت في حياتي بامرأة مثلها . بدا واضحا أنها تعرفني معرفة حميمة ، فكيف أستطيع أن أغفر لنفسي أنني لا أعرف أين ومتى وكيف التقيت بهذه الأنثى الساحرة . أضافت هي حطبا جديدا إلى مواقد النار التي أضرمت سعيها في صدري .

- ألا تذكرني؟

ياالفجيعة ما أعظمها . إنني فعلا لا أذكرها ، لأنني لا أذكر أنني التقيت بامرأة لها مثل جمالها ، الذي أبهجنى وعذبني منذ أول لحظة . رأيتني واجها ، ذاهلا ، لا أقدر على النطق فأضافت :

- ألا تذكر تلك الطفلة التي أحبتك وأحببتها ، وصنعت لها أول وآخر لحظة مجد وتألقت في حياتها .

وقبل أن أستوعب هذا الكلام المبهر ، من الحب والمجد والتألق ، الذي جمع بيني وبينها في أزمنة سالفة ، وجدتها ، ووسط هذا الحشد من البشر الذين يضمهم السوق ، تغني بصوت هامس ضاحك :

نحن زهور حدائقها

نحن الحنة في يدها

نحن القرط بأذنيها

نحن بنات مدينتنا

ثم توقفت عن الغناء لتقول :

- هل عرفتني الآن يا أستاذ حامد ؟

ولا أدري كيف استنفرت الصدمة كل مداركي ، وجعلتني أستعيد شريط حياتي كله في برهة خاطفة ، وأتوقف عند اللحظة التي عرفت فيها هذه الفتاة وهي طفلة ، فإذا بها واضحة بكل تفاصيلها في ذهني ، وكأنها لم تحدث إلا منذ أيام قليلة ، وإذا بي أهتف باسمها :

- خديجة .

أعدت الاسم مرة أخرى ، وأنا لا أكاد أصدق أنني عثرت عليه وسط مخازن الذاكرة المليئة بأكداس المهملات . قلت من خلال أنفاسي اللاهثة :

- كيف لي أن أعرفك بعد كل ما حدث لتلك الطفلة من تحولات .

- أما أنت فما زلت ، ماشاء الله ، كما أنت ، منذ تلك الأيام .

كنت في بداية التحاقني بالوظيفة مشرفا على النشاط المدرسي ، وكانت خديجة في أولى مراحل التعليم ، في عامها السادس أو السابع ، أعجبني نشاطها وحيويتها فأخذتها لتقديم فقرة غنائية في إحدى الحفلات المدرسية . دربتها على الغناء وأداء الحركات التعبيرية ، فلاقت عندما ظهرت على المسرح ، استحسان المتفرجين ، ونشرت إحدى الصحف الطلابية صورتها ، واسمها «الطفلة المعجزة» ولكن والدها لم يعجبه اشتراكها في الحفل ، واعتبر أمها مسئولة عن ظهور ابنتها أمام الناس ترقص وتغني فكان ذلك سبب خصام بينهما أدى إلى الطلاق . أهملت هذه التفصيلة التي لم أعرفها إلا بعد فوات الأوان ، وأردت استحضار تلك اللحظات المبهجة عندما كنا نلتقي في رحاب الفن الجميل .

- هاهي الطفلة المعجزة تعود إلى الظهور من جديد، فيالها من مفاجأة سعيدة .

أخبرتني إنها تركت التعليم منذ ذلك الوقت ، ولكنها استطاعت وهي داخل البيت أن تتعلم من أمها مهنة الخياطة حتى أتقنتها وصارت تكسب منها أضعاف مايكسبه خريجو الجامعات .

- الفضل لك أنت فلولا تلك الحفلة ، لوصلت تعليمي ، وانضمت إلى طوابير العاطلين من خريجي الجامعات .

أقلقني أنها تحملني مسئولية انقطاعها عن التعليم ، وتسمي هذا الإثم فضلا . لقد كان الحفل ، كارثة بالنسبة لها ، فهو السبب وراء انهيار حياتها العائلية ولابد أنها قاست كثيرا وهي تعيش حياة خالية من الأمان ، محرومة من التعليم ، فهل تراها ، ستنسب لي كل هذه الأفضال . لم أشأ أن أدافع عن نفسي ، أو أتوقف عند هذه القصة التي تجلب الكدر . مضيت بسرعة أنقل لها سعادتي بلقائها وإعجابي بجمالها قائلاً :

- لقد كنت نجمة منذ أيام الطفولة ، وهأنذا اليوم أراك تتألقين بشبابك وجمالك مثل النجوم .

أسبلت رموشها حياء ، في حين ذهب تفكيرى للبحث عن طريقة لا تخرجها ، أبدي بها استعدادي لخدمتها إذا أرادت عوناً ومساعدة . رأيته تلتفت باتجاه امرأة تقف أمام أحد الدكاكين لم أتبين ملامحها ، وتقول بأنها جاءت بصحبته إلى السوق ، فهي صديقة لها تصنع بعض المشغولات اليدوية في بيتها ، وتعطيها لمتجر يبيعها لها . كانت المرأة تنتظرها فمدت يدها مودعة . أخذت يدها أبقيا قليلا في يدي لكي أطيل عمر هذه اللحظات المبهجة ، متمنيا أن أراها مرة أخرى . ذهبت لكي تلتحق بصديقتها ، وشيعتها بنظراتي وهي تبتعد ، حتى توارت خلف بوابة السوق .

وقفت قليلا أحرق في الفراغ الذي تركته خديجة ، فرأيت وسط الفراغ طيفا شفافا يحمل شكل قوامها وملامح وجهها . لم يفرعني الطيف ، فأنا أعرف أنه نوع من خداع البصر ، الذي جاء نتيجة الإجهاد والتركيز الشديد عندما كنت أنظر إليها . أغمضت عيني أحاول أن أطرد طيفها من بصري وذاكرتي ، ورجعت مسرعا إلى بيتي ، وإلى غرفة مكتبي أحتمي بها من سطوة هذا الطيف ، ولا أدري كيف أن عطبا حدث للعصب البصري بحيث صار يعيد إنتاج ذلك الطيف حتى وأنا أتصفح كتبي وكراريسي . أهملت الموضوع ، فهو شئ طارئ سينتهي حال أن أذهب إلى النوم . ووجدت أنه فعلا قد انتهى أثناء ذلك ، كما اختفى في صباح اليوم التالي وأنا أذهب إلى عملي ، وأنهمك في الروتين اليومي للمركز ، أناقش الباحثين وأراجع معهم الوثائق والبحوث . ولا أدري لماذا عندما جاء المساء وعدت إلى المركز أواصل عملا يتصل بأبحاثي الخاصة ، بعيدا عن زحمة المراجعين والعاملين ، وجدت أن طيف خديجة قد عاد إلى الظهور مرة أخرى . رأيت طيفها باسما كأنها تناديني وتهمس لي بتلك الكلمات التي أطربني عندما سمعتها بالأمس :

- تلك الطفلة التي أحبتك وأحببتها .

لعل هذا هو الحب قلت في نفسي . لعلني حقا أحببتها من حيث لا أدري ، وإلا ما الذي يجعلني مشغولا بها ، لا أستطيع أن أرى ، كلما خلوت إلى نفسي ، إلا طيفها . ترى أي حب هذا الذي يمكن أن يجمعني بفتاة تصغري أكثر من عشرين عاما وأنا الذي لم يعرف الحب إلا أوهاما أيام الصبا ، أو أغنيات يسمعها في المذياع أو قصصا يقرأها للتسلية ، والذي رتب حياته بعيدا عن هذا الترف الذي لا يليق إلا باللاهين واللاعبين ، لا بالرجال الذين كرسوا حياتهم للعلم أمثالي .

ثم كيف يمكن للقاء قصير ، عابر ، لم يدم أكثر من خمس دقائق ، أن يوقد شعلة الحب ، في قلب يغطيه رماد السنين .

حقاً، لقد بهرفي جماها، وتمنيت لو أنني رجعت شاباً، يضاهي عمري عمرها، لأنني كنت أعرف أنها من نصيب رجل آخر، ينتمي إلى جيلها، ويتكافأ عمره مع عمرها، ووسامته مع جماها، ولكن هل يخضع الحب لمثل هذه الاعتبارات؟ وهل يقيم وزناً لمثل هذا التفكير المنطقي؟

حاولت أن أواصل عملي، ولكن طيفها، أرغمني على أن أترك المكتب، وأتجه إلى سيارتي أقودها علي عجل باتجاه مركز المدينة. أوقفتها في مكان قريب من سوق المشغولات اليدوية، ودخلت مسرعا إلى هناك، أترقب قدومها.

ولأنني لا أعرف مكانا آخر أذهب إليه بحثا عنها، فقد صار سوق المشغولات اليدوية، هو المكان الوحيد الذي أقصده كل يوم بأمل أن ألتقي بها.

كان طيفها لا يختفي إلا ليعود من جديد بمجرد أن أختلي بنفسي، ولم يكن لذلك كله، سوى تفسير واحد، وهو أنني وقعت أسير هذه الأنثى، التي رمت شباكها حولي، وتركت طيفها يلاحقني، ومعتني بأن أنشغل بأي شئ آخر سواها.

لم أعد قادرا علي مواصلة القراءة والكتابة، لأنني ما أن أفتح كتابا حتي أرى صورتها تطفو فوق الكلمات، كما لم أعد قادرا على إنجاز عمل المركز، لأن كل ملكات الفهم والإدراك صارت مشغولة بها، تبحث عن وسيلة للتواصل معها. فحياتي لم تعد تعرف إلا هدفا واحدا هو أن ألتقي بخديجة مرة أخرى. ولا أدري لماذا تصورت أن هذا اللقاء سوف يضع حدا لأوجاع القلب التي أحس بها، ويخرجني من حالة القلق والذهول التي أصابتني. موقنا بأنها ما أن تراني، وتعرف حالتي حتي تدرك أنه لا إنسان في الدنيا يمكن أن يحبها بمثل ما أحببتها. إنني الآن فقط أدركت، أن ما حدث لي ليس حبا طارئا، عابرا، جاء نتيجة التقائي بها وهي في تمام نصحتها وأنوثتها، وإنما عاطفة ادخرها لها منذ أن

عرفتها في مراحل عمرها الأول، ثم نمت هذه العاطفة واكتسبت لونا جديداً، خلال سنوات الصمت والقطيعة، ولم يكن حبي لها ينتظر إلا لقاء عابراً مثل ذلك اللقاء، ليتفجر كما يتفجر البرق عند تصادم السحب العاصفة ببشائر الغيث والخصوبة.

داومت على الذهاب إلى السوق كل مساء، وذهبت ذات يوم في مغامرة للبحث عن اسمها في دفاتر المدرسة القديمة التي شهدت أول تعارف بيننا، علني أعثر على أثر يدلني على عنوانها، فوجدت أن المدرسة قد أزيلت، وحلت مكانها عمارات سكنية. عدت إلى الاحتفاء بالسوق، الذي كنت أصل إليه أحياناً قبل أن تفتح الدكاكين أبوابها فأقضي ساعات الانتظار متجولاً في الشوارع المحاذية. لم أعد أبحث عن أحد يعرفني أو أعرفه، وعندما يصادفني في الطريق وجه مألوف كنت أدير وجهي إلى الناحية الأخرى، لكي لا يراني، لأنني لا أملك وقتاً ولا فكرياً لصحبة الناس. ثم مالبت هذه الزيارات المسائية للسوق، أن صارت صباحية أيضاً، فقد خشيت أن تأتي في الصباح وتضيع فرصتي في الالتقاء بها.

أصبحت بعد مضي أيام قليلة، وجهاً معروفاً لدى أصحاب الدكاكين، الذين اعتبروني جميعاً محباً لفنونهم وصناعاتهم اليدوية، واستخدمت أسلوباً ذكياً في البحث عن خديجة، فقد كنت أشتري بعض مقتنياتهم، وأسألهم أثناء الشراء، إن كانت هذه المروحة المصنوعة من سعف النخيل، أو هذه المحفظة الجديدة الحافلة بالنقوش أو هذا الصحن الفضي المثلئ بالأسماك المرسومة، من شغل امرأة رأيته تأتي إلى السوق وتقدم معروضاتها للدكاكين، فكانوا يسألونني عن اسمها، أو يطلبون مني وصفاً لها، لأن نساء كثيرات يقمن بهذا العمل. فكنت أخبرهم، بأنني لا أعرفها وإنما أعرف فتاة بالغة الجمال تأتي بصحبته اسمها خديجة. لم يستطع أحد منهم أن يدلني عليها ولكنهم عرفوا جميعاً أن سبب مجيئي إلى السوق هو البحث عن صبية ذات ملاحظة وبهاء اسمها خديجة.

وأبدوا تعاطفا جميلا مع قضيتي ، وصاروا يسألون كل امرأة تأتي بمشغولاتها إلى السوق عما إذا كان لها صديقة اسمها خديجة ، يفعلون ذلك أمامي ويطمثنوني بأنه لن تمضي سوى بضعة أيام حتي يهتدون إليها . ولكن خديجة لاتأتي ، وكأنها اتخذت قرارا بأن تحجب نفسها عني ، وتركني أتعذب وحيدا مع طيفها .

طالت مدة غيابي عن المركز، وجاء زملاء العمل ورائي إلى السوق ، يريدون إقناعي بالعودة إلى العمل ، وعرفوا هم أيضا ، مايعرفه أهل السوق ، من أنني أنتظر فتاة اسمها خديجة ، فحاولوا معاونتي في العثور عليها ، وجاء بعضهم يخبرني بأن هناك غانية يتناقل الناس أخبارها ، ويتحدثون عن جمالها ، وتتطابق أوصافها مع أوصاف المرأة التي أبحث عنها ، كما يتطابق اسم هذه المرأة السيئة السمعة مع اسمها ، فاشتبكت في عراك معهم ، ورفضت أن ألتقي بهم ، أو أتحدث إليهم بعد ذلك . كما جاءني من أهل السوق من يعيد ذات الكلام ، ويؤكد لي بأن خديجة التي أنتظرها ليست إلا امرأة تبيع جمالها لزبائن المتعة ، فكنت أرفض الاستماع إليه ، لأنه لايقول إلا كذبا ، فلا يمكن أن تكون تلك الطفلة البريئة الجميلة ، التي أحببتها وأحببني قد أوصلتها تلك الحفلة المشثومة ، إلى هذا السقوط الفاجع المروع .

وصدر بعد شهر أو أكثر من غيابي ، قرار بإعفائي من العمل ، فحررتني ذلك من إلحاح وملاحقة الزملاء .

ولم يكن غريباً أن تعرف امرأتي السبب الذي جعلني أغيب عن البيت طوال ساعات النهار، فتطلب الطلاق وحضانة الأطفال وملكية المنزل . وتحقق لها ما أرادت ، وتحررت من أعباء الأسرة ، كما تحررت من أعباء العمل وصار بإمكانني الآن أن أختصر متاعب الذهاب إلى البيت والعودة منه . هناك ركن هادئ في مدخل السوق ، يجاور نافورة جميلة ، ولن أجد مكانا أأخذ سكنا أفضل من هذا المكان . وجاء أهل الفضل ممن يعرفون قصتي ، يبنون لي كشكا هناك ،

عندما رأوني أنام في العراء ويعتبرونني حارساً ليلياً لهذا السوق يستحق أجراً نظير قيامه بهذا العمل فأعفاني ذلك من مشقة البقاء واقفاً طوال اليوم وصار بإمكانني أن أجلس أمام السوق أراقب الداخلين والخارجين .

مضت الآن سنوات وأنا أقيم بهذا الكشك ، وأتكوم كل يوم فوق الرصيف أتلقى نظرات الإشفاق والأسى ، وأسأل نفسي لماذا أنا هنا ، وما الذي أخرجني من بيتي وعملي وحولني إلى حطام مهممل ، لإنسان يعيش علي هامش الحياة ، فأذكر أن ذلك كله كان بسبب امرأة ، لم أعد أذكر اسمها ، فقد توارت ذكراها في صدري واختفى طيفها من حياتي ، وما عدت قادراً علي أن أذكر ملامح وجهها حتى لو وقفت الآن أمامي . هل كان اسمها خديجة ؟ ربما ، فلم يعد ذلك مهماً الآن . لقد حققت تلك الفتاة انتقامها ، وأنزلت عقاباً صارماً بالرجل الذي هدم حياتها ثم انتهت مهمتها بمجرد أن أوصلتني إلى قاع هذا الجب .

الدعابة

كان ما حدث أكبر من أن تصدقه عقولهم . لكنه حدث . وها هم أمام الكارثة التي انتهى بها يوم الاجازة

بدأ كل شئ بدعابة من دعابات رضوان ، التي أصبحت جزءا من يوم عطلتهم الاسبوعية . يلتقي الأصدقاء الخمسة منذ الصباح وقد أعدوا أنفسهم للنزهة ، وهياؤا لها ما تحتاجه من تموين . ثم يستقلون سيارة رضوان إلى هذه المزرعة التي أتاح لهم صاحبها فرصة المجئ إليها كل أسبوع . يتنزهون قليلا بين أشجارها وجداولها ويلعبون الكرة في طرف منها ، بعيدا عن الزرع . وتأتي الظهيرة ، فيعدون طعامهم ، ويقضون فترة القيلولة في غرفة الضيافة ، يتسامرون ويلعبون الورق إلى أن ينتهي النهار .

يفعلون ذلك كل أسبوع ، كسراً للروتين ، وتجديداً للحياة الوظيفية التي جمعتهم في مكتب واحد .

دعابة رضوان هذا اليوم كانت ثقيلة ، أزعجتهم كثيرا وحرمتهم من أكلة كانوا يشتهونها ، فقرروا عقابه بدعابة يكون هو ضحيتها هذه المرة .

كانت مفاجأة النزهة لهذا اليوم ، أنهم عثروا على جزار يبيع لحم الإبل ، التي صار لحمها نادرا في السوق بعد أن أحللت البادية من رجاها وجمالها . وما أن أكملوا نزهتهم بين الأشجار ، والتقطوا من حبات الطماطم وجذور الخس مايكفي لصنع أطباق السلطة ، وأعياهم الجري وراء الكرة ، حتى عادوا

يجتمعون في موقع قريب من غرفة الضيافة ويتعاونون في طهي ما جلسوه من لحم الإبل .

كان رضوان أكثرهم نشاطا ومهارة في إعداد الطعام ، وأكثرهم حديثا عنه ، يترجرج جسمه البدين وهو يجمع الأحطاب ويشعل النار ، وينفخها بأوداج كثيرة الإحمرار ، ثم يمسح دموعه من أثر الدخان ، مبديا أسفه لغدر الإنسان ولؤمه بدليل أنهم الآن يطهون لحم حيوان كريم نبيل ، أسدى أعظم الخدمات لقاطني هذه البيئة الصحراوية ، وهاهم يكافئون خدماته الجليلة بنحره وأكل لحمه . وبالغ في استنكار هذا الفعل ، والشؤم الذي سيخلق بمن يأكل لحم الإبل ، حتى ظن رفاقه أن نفسه سوف تأبى أن تشارك في وليمة الجمل المغدور . ولكن ما أن استوى الطعام ، حتى فوجئوا برضوان ، يأخذ القدر الذي احتوى اللحم ، ويهرب به مختفيا بين الأشجار . طاردوه حتى اتعبتهم المطاردة ، وعندما وصلوا إليه ، كان قد أتى على أغلب اللحم ، وما تبقى منه تناثر أثناء النزاع فوق الأرض ، مختلطا بالأتربة والأوحال .

عادوا ببطون خاوية إلى غرفة الضيافة ، يحتمون بها من صهد القيلولة ، وهم يتميزون غيظا ، وينزلون لعناتهم برضوان ، الذي ألقى بجسمه فوق الأفرشة واستغرق في النوم ، غير عابئ بهم أو بشتائمهم .

ما أن رأوه نائما ، يرسل شخير عاليا ، حتى جاءتهم الفكرة التي يحققون بها انتقامهم . قرروا أن يسدوا كل منافذ الضوء في الغرفة ، حتى تظلم إظلاما شاملا ، ثم يوقظونه وهم يوهمونه ، بأن الغرفة مشرعة النوافذ ، مليئة بأشعة شمس الظهيرة ، لكي يلتس عليه الأمر ويظن أنه فاقد البصر . يفزعونه قليلا ، ثم يفتحون له النوافذ ، ليعرف عندئذ أن الأمر لم يكن سوى دعابة ، يردون بها على دعابته الثقيلة التي حرمتهم من طعام الغداء .

أقفلوا باب الغرفة ونوافذها الثلاث . وجاءوا بالبطاطين الثقيلة ، القائمة

اللون ، يسدلونها فوق الباب والموافذ ، ويسدون بها كل الشقوق التي يأتي منها الضوء ، حتى أظلمت الغرفة إظلاما كاملا . جلسوا وسط الظلام ، يتظاهرون بأنهم يلعبون الورق ، ويوهمونه بأنهم يعدون الشاي . وامتدت يد أحدهم تهز بدن رضوان وتوقظه لكي يتناول كوب الشاي .

سمعوا حركة رضوان وهو يقوم من رقاده ، يتمطى ويتثائب .

- هيا أما زلت نائما .

- كيف يواتيني النوم ، وأنتم تزعجونني بكل هذا الصخب .

اكتشف الظلام الذي حوله ، فتساءل قائلا :

- أين أنتم ؟

- هيا خذ هذا الكوب من الشاي الأخضر ، لعله ينزل سما يهري معدتك بكل ما استولت عليه من لحوم .

مضوا يتظاهرون بأنهم يلعبون الورق ، وعلا صراخ أحدهم ابتهاجا لأنه حقق انتصارا في اللعب . في حين أصر زميله الآخر علي أن يده لاتزال ممدودة بكوب الشاي ، ويلح على رضوان أن يأخذ الكوب قبل أن يبرد .

- أين هو كوب الشاي . إنني لا أرى شيئا .

- ماهذا الذي تقوله يارجل . هل عميت ؟

- أقول أنني لا أرى إلا الظلام . فهل نحن في منتصف الليل .

- توقف عن مزاحك الثقيل . فقد نلنا مايكفينا هذا اليوم . إننا في منتصف النهار . نشرب الشاي ونلعب الورق . فأين هو الظلام ؟

قال صائحا :

- إنني لا أمزح . إنني لا أرى شيئا أقول لكم .

أدركوا أنهم أتقنوا اللعبة . وأن الحيلة قد انطلت عليه . فليذق قليلا مما يسقيه للآخرين . قال أحد رفاقه في تشف :

- لاحول ولا قوة إلا بالله . إذن فقد عميت يارضوان . إنها لعنة الحمل الذي أكلت لحمه بمفردك .

أطلق رضوان صيحة ذعر، ومضى بعدها يضرب الحائط باكيا متشنجا .

- مستحيل . غير معقول . غير ممكن . هل حقا صرت أعمى . مستحيل . كيف ؟ لماذا ؟ مستحيل .

اطمأنوا إلى أنهم حققوا انتقامهم ، وزرعوا في قلبه رعبا لن ينساه مدى العمر . فأطلقوا ضحكاتهم الساخرة التي فضحت اللعبة . قال رضوان من خلال التشنج والبكاء .

- انكم تضحكون .

- كل هذا لكي تتعلم ألا تمزح معنا مزاحا ثقيلا مرة أخرى . اطمئن . انك لم تفقد البصر . نحن الذين أغلقنا الغرفة قصدا لكي نفرعك .

مضى يضرب الهواء لكي ينالهم بلكماته ، في حين ظلوا يطلقون الضحكات وهم ينزلون البطاطين من فوق النوافذ ، ويفتحونها ليتدفق ضوء النهار ويملا الغرفة . فروا من أمامه ضاحكين ، لكي يتقوا ضرباته عندما يبصرهم ، ولكن رضوان ظل يتخبط في مكانه يتلمس الحائط صائحا .

- هيا افتحوا النوافذ بسرعة أيها الكلاب .

تجمدوا في أماكنهم ، غير قادرين علي استيعاب ما حدث . فقد فتحوا الباب كما فتحوا النوافذ فكيف عجز رضوان عن الرؤية وسط هذا النور الذي ملى الغرفة .

واصل رضوان الصياح .

- سأنتقم منكم واحدا واحدا أيها الجبناء . سأمنعكم من ركوب السيارة لكي تعودوا إلي بيوتكم سيرا على الأقدام . ستصلوها بعد أسبوع إن شاء الله . هيا ، لماذا تبطئون في فتح النوافذ . دعوني أرى الضوء ، أيها الخنازير . لقد اتعبني الظلام . سأفتح النافذة بنفسى فأين هي ؟

وقفوا في رعب وصمت ينظرون إلى رضوان وهو يضرب الجدران ، ثم هرولوا إليه ، يقودونه ، وهو يتهدهدهم ويتوعدهم ، إلي خارج الغرفة ، بأمل أن يعيد إليه ، الوقوف فوق الأرض العراء ، وتحت شمس الظهيرة الساطعة ، بصره المفقود . ولكن رضوان ظل ينشر ذراعيه في الفضاء . ويبحث عن نافذة لاوجود لها ، وهو يلعنهم ويصيح بهم أن يعينوه على فتح النافذة المغلقة

عندها أدركوا أن الظلام الوهمي ، الذي أحكموه حول صاحبهم ، قد تحول إلي ظلام حقيقي ، لاتنفذ إليه أشعة الشمس . أدركوا في حزن وأسى عظيمين ، أن رضوان ، سيعيش منذ اليوم فاقد البصر.

المحتويات

مقدمة ..	٥
مرايا فينيسيا ..	٢٣
تشارلز وديانا ..	٤٥
موعد تحت برج الساعة ..	٥٥
من يخاف أجاثا كريستي ..	٦٣
ليلة الأقنعة ..	٧٥
الانتقام ..	٨٥
العقاب ..	٩١
الدعابة ..	١٠٥

رقم الايداع ٩٦/١٤٢٤٨
I.S.B.N. 977 - 09 - 0365 - 5

مطابع الشروقة

القاهرة ٨٠ شارع سيوفه المصرى - ت ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت . ص ب . ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)



أحمد إبراهيم الفقيه ، صاحب مدرسة متميزة في كتابة القصة القصيرة . وهذه الباقية القصصية التي تشكل أحدث ابداعاته ، مثال واضح على تلك القوة السحرية التي يمتلكها قلمه ، والتي جعلته واحداً من أبرز أعلام هذا الفن في الوطن العربي . وقد وصف الناقد الدكتور صبرى حافظ ، أسلوب الدكتور أحمد إبراهيم الفقيه ، بأنه مشحون بقوة الخيال التعزيمية التي تفرض سيطرتها على الواقع ، وتجعل القارئ يعيش تجربة فريدة حاملة بالمتعة والجمال والثراء الروحي .